وفاء سامي

سلسلة

أحببت السراب

مجموعة قصصية

بقلم/
رنيم عادل

سلسلة

أحببت السراب

مجموعة قصصية بقلم/

رنيم عادل

★تصميم غلاف وداخلي وتعبئة★

وفاء سامي

★حسابات تواصل الكاتبة★

فيس بوك

https://www.facebook.com/profile.php?id=100043036791384

آسك

https://askfm.onelink.me/FaQr/qr?profile=raneemadel189&utm_source=copy_link&utm_medium=android

نبذة عن الكاتبة:

حاصلة على ليسانس اللغة العربية جامعة الأزهر بتقدير امتياز مع مرتبة الشرف الأولى وماجستير اللغة العربية

١-أَحْبَبْتُ السَّرَاب

لا أدري حقا كيف أبدأ حكايتي، وما سأقتبس منها، وكيف سأنسج خيوطها، لكنها تتلخص في كلمتين لا ثالث لهما، "أحببت السراب"

نادمة بشدة، ولا أدري على أي شيء أندم، هل على أيام عمري التي تمضي دون فائدة تذكر، أم أحلامي التي ولت مدبرة ولن تعقب، أم على شكلي ومظهري وصحتي التي ذهبت ولن تعود!

بدأت قصتي المؤلمة منذ سبع سنوات تقريبا، حين التحقت بالجامعة. شيرين طالبة متفوقة، لي قلة من الصديقات، لا أميل إلى التجمعات وكثرة الارتباطات، لم تعني لي الجامعة أكثر من مكان

للتعلم. حققت نجاحا باهرا في أول عامين لي في الدراسة، وظلت هكذا حالي، إلى أن جاء يوم لم أحسب له قبلا، أشارت زميلة لي إلى شاب يقف على بعد أمتار من مجلسنا، ثم نظرت نحوي بخبث بالغ مردفة: سبحانه! وله في ذلك حكم...ثم حملت حقدها وجرت أذيال خبثها مغادرة المكان.. ولم يمضِ أسبوع على تلك الحادثة؛ حتى وجدت أحدهم يتبعني إلى المنزل، لم أُعر الأمر اهتماما، وبدوت متجاهلة لما يجري. وصلت للمنزل وأسرعت الخطى نحو غرفتي، لا أتذكر شيء مما حدث بعد ذلك، سوى أن ذلك الشبح كان يطاردني بعدها بكل اتجاه، ولا زلت حتى الآن أجهل السبب، لا

أعرف ماذا كنت أعني له، وماذا قد أصبحت أعني الآن!

فجأة ظهر أمامي بعدها في قاعة المحاضرات، رمقته بنظرة تتأجج غضبا، ولم ألتفت لكلمة واحدة مما قالها، تركت المكان بهدوء تام وانصرفت نحو المنزل. وبعد أيام قليلة، حلت اختبارات انتهاء العام الدراسي، فاختفى تماما عن الأنظار، حمدت الله من قلبي، تمنيت لو أن كل الأيام تكون اختبارا، ولا أراه أمامي من جديد.. لكنه كان اختباري الأعظم في الحياة، الاختبار الذي لم تحسم نتائجه، ولم ترصد درجاته بعد، الاختبار الذي لم أتهيأ له على القدر الكافي، وربما يكون الأسوأ على الإطلاق..

بعد تجاوز فترة الامتحان، أخبرني والدي أن هناك من يتقدم لخطبتي، وطلب مني الاستعداد، وبالفعل بعد تململ طويل خرجت لأجد آخر وجه قد أرغب في رؤيته، لقد كان هو بالفعل من ظننتم، وما إن رأيته حتى اختنق داخلي وضاق صدري، جلست نحو خمس دقائق كانت دهرا بالنسبة إلي، ثم انسحبت من المكان، وداخلي مبعثر تماما، ينتابني عدة تساؤلات، لماذا أنا، لم اختارني من بين كل الفتيات اللاتي تلحقن به مرارا؟

هل أراد أن يثبت لنفسه انتصارا جديدا بضمي للقائمة؟ أم أنه معجب بي بالفعل كما أخبرني والدي بعد انصرافه، حاولت جاهدة التخلص من الأمر، وتبرير رفضي له، لم أجد سببا مقنعا في

ذلك؛ فأسامة كانت به كل المواصفات التي وضعها والدي لأحلامهما، عائلة يضج صيتها بالأرجاء، مال، ترف، ونفوذ غير متناهي، ثم إن الشاب متعلم، في كلية كما يقولون عنها من (كليات القمة) وليست القمة في كلية أو غيرها، بل القمة في النفس التي تحمل صاحبة إلى أعلى قمة، ومع مرور الوقت وإلحاح والداي، وإصرارهما على فتى أحلامهم، وافقت بالنهاية، وكانت تلك أولى خطواتي نحو الهلاك، لم أكلف نفسي بالدفاع عن مبادئي حتى النهاية، وبدأت استمع لما تلوكه الألسنة وتتغنى به من مآثر الفارس الهمام..

ثم وقعت الكارثة، فبدأت أساير الوهم شيئا فشيئا حتى تسلل إلى داخلي تماما، وسايرت الأمر كما

لو كانت تحكى عن الأساطير كقيس وليلي، ولكن أنى نحن وأين الليالي التي جمعتنا ثم بعثرتنا في مهب الريح.. تمت خطبتنا سريعا، وكنت أوهم قلبي بأنه هو، هو اختياري وحلمي، والنفس التي أتمنى أن تشاطرني أحلامي إلى نهايتها، لا يحضرني الآن من قصة الحب وإن شئت القول قصة الوهم سوى نظرات الإعجاب التي كانت تغزو وجوه الفتيات عند رؤيتنا معا، ربما كان هذا الانبهار والزهو الزائف هو ما دفعني لخوض تلك المأساة عن طيب خاطر، أنا لم أحب أسامة يوما، بل أحببت نظرات الإعجاب التي كانت تطوقني برفقته، كنت أشعر بشيء من التميز لأنه قد وقع اختياري من بين كل هؤلاء..

وتقدمت الأيام لتعلن الزفاف المنتظر، كان كما حلم به والداي تماما، شخصيات مرموقة مزهوة بالسطوة الزائفة، فرق موسيقية عتيدة تعزف لحن وفاتي، وجوه تكتسي بالنفاق والابتسام المصطنع وإن كان بعضها يشي بقولهم: من تلك!

بعد الزفاف علمت أنني كنت بمثابة تحدي في حياة أسامة، الشاب الذي لا يعرف حدودا لما يريد، ولم يعتد أن هناك ما هو ممنوع عليه، كانت تجربة لإثبات سطوته وجبروته، ومطاوعة من والده الذي وجد في الأمر ما قد يصلحه ويقيم به شتاته ويقوم به فساده،

بعد الزفاف، بدأت الأمور تتغير تماما، وجدت عقلا فارغا، لا يحتوي بداخله على رمق من

التفكير أو التعقل حتى، اتكال تام على الوالد فاحش الثراء، فوضوية وعدم تحمل للمسئولية، تذمر وسخط لأتفه الأسباب، كنت ألوم نفسي كل يوم، واتدثر بحزني ودمعي في المساء، ارسم ابتسامات زائفة بوجه والداي وكل من حولي، لكن هناك نظرات كانت تقتلني كل يوم، كلما نظرت إلى تلك المرآة، لا أجد بها من كانت تشبهني، تسرب اليأس إلى نفسي حتى انطفأ كل أمل بداخلي، ومات كل حلم بالنسبة إلي، وأصبحت لا اهتدي إلى نفسي التي اشتقتها وبحق!

مرت الأيام، وحلت السنة الدراسية الجديدة التي كانت تحمل معها أعباء حدّبت ظهري، وأوهنت عقلي أضعاف ما قد كان عليه، مسؤوليات عدة،

ما بين طالبة، وربة منزل، والأسوأ من ذلك أم جديدة على مشارف الأمومة، كان كل يوم بمثابة جحيم على ظهر الأرض، ابتعدت عن كل من أعرف، قضيت أياما كثيرة بمفردي أعاني ألم نفسي التي أحكمت قيدها بيدي، أعاني من إهانات فارس أحلامي، لقد تغير شكلك كثيرا، وازداد وزنك بضع كليو جرامات، وما هذا الشحوب بوجهك، لماذا أنت متعبة دائما؟ والكثير من العبارات التي لا تنم إلا عن شيء واحد، نعم لقد أحببت السراب، لم أجد صفة واحدة ذاتية أحبه لأجلها، لم يكن يوما رحيما معي، لم أجد منه مساعدة قط، لم يسألني يوما عن حالي، وما إن كنت بخير، إنه عار تماما

عن كل معنى للإنسانية قبل الحب أو حتى بوادره من الإعجاب!

حتى أنه لا يمكن وصفه بجماد في صورة بشر؛ فالجمادات لا تضر ولا تنفع أما هو فلا يرجى منه غير الضرر..

مرت الأيام ووضعت طفلي الأول، وانشغلت به تماما عن كل شيء، تأخر معدلي الدراسي، حتى تخليت عن دراستي تماما تحت منطلق والداي (ولم تحتاجين إلى شهادة ومعك هذا المال)، نعم معي المال، بلا مشاعر، أو تفاهم، أو أدنى اهتمام..

معي شيء واحد، بينما أضعت ألف شيء!

ليت الحل كان يكمن في تلك الوريقات التي استخدمها والداي كحد بين فارسٍ وغيره، بين

أسامة الذي كان قلبه هواء، وعقله هواء، وكل شيء فيه، وبين غيره..

أقضي الأيام كأسيرة في قصري الكبير، لم أعد أنظر بمرآتي حتى أتجنب تلك النظرات، لم يعد بإمكاني التحمل أكثر، أرغب في الانفصال عن أسامة، وهجر العالم بأسره والانفراد بصغيري، الذي يحيا اليتم وكلا أبويه بين الأحياء، ولا أدري إلى متى يسعني البقاء في هذا الأسر..

أكتب إليكم تلك الكلمات حتى لا تختبرن مرارة الأسر التي أعاني، حتى لا يصبح كل بيت يأسر بين جدرانه شيرين أخرى، حتى لا تنخدعوا في كل فارس يدق بابكم، حتى أكشف آلاف الأوجه من أسامة التي كانت ومازالت تحيا بيننا، وأنقذ

أرواحا تولد على ساحة اليأس الأسري، تولد وليس لها ملجأ سوى بيت العنكبوت..

اختاريه إنسانا قبل كل شيء..

اختاري روحا تكمل روحك..

ونفسا تسكنين إليها وتسكن..

★★★

2-نَظْرَةٌ أُخْرَى

أعلم أني مذنب يقينا، وليس هناك ما يشفيني من الندم، حقا لقد كنت المذنب الوحيد في هذه القضية. كنت مذنبا وقاضيا وجلادا في الوقت ذاته، أصدرت حكما بإعدام روحي، ثم خففته فيما بعد إلى السجن المؤبد خلف جدران الأحزان، مع الأشغال الشاقة بالتفكير الذي كاد يسطر شهادة وفاتي!

تبدأ قصتي عندما هممت بالتقدم لخطبة ابنة عمتي" أميرة" يكفي أن ألفظ اسمها فقط، ليستحضر ذهنك كل معاني الجمال. لقد كانت أميرة وبحق! كأنها أخذت كل مقادير السعادة

والنجاح المقدرة للخلق جميعا، ثم مزجتها في كوب سحري وتناولته في صغرها. متميزة إلى أبعد حد قد يتصوره العقل، ولا أريد أن أسمع من يقول أنها عين المحب أو غيره، فأنا لم أعد ذلك المحب، ولكنها تبقى كما هي!

تحمل وجها تفيض قسماته بالصفاء والبراءة، لها حضور اجتماعي مذهل، تشد انتباه كل من عرفها إليها، لو دخلتْ إلى أي مكان لالتف من حولها من فيه. كما أنها كانت متوفقة دراسيا، مجتهدة إلى أبعد الحدود، تضع هالة حولها من الاحترام، ومساحة من الأدب. كنت قد أشغفت بها منذ صغري، وكبرت وكبر ذلك الشغف بداخلي. لطالما صارعت لإخفائه وستره، حتى أتى يوم ونفد كل صبر كان بداخلي، صارحت

أمي بالحقيقة، فسعدت لذلك كثيرا؛ فالفتاة يتمنى الجميع بضمها لعائلته، فوق هذا فصلة القرابة سترفع عنا التكلف عند التقدم لخطبتها، وبالفعل قطعت أمي لي وعدا بالذهاب لزيارتهم في أقرب وقت ممكن.

في تلك الأثناء كنت أحيا سعادة لا تنم عنها الكلمات مطلقا، كمن وجد ضالته بعد انقطاع سبيله وفقد كل شيء لديه، رحت أرسم لوحة سعادتنا وأضع خططا لمستقبلنا وحياتنا، أرتب كلمات بداخل قلبي أحدثها بها، وأنظم فيها أشعار شوق دام من الصبا.

ثم استيقظت في أحد الأيام على انقباض بوجه أمي، سألتها مرارا عن السبب، لكنها كانت تتخلص من الإجابة، حتى هاتفني الأخ الأصغر

لأميرة يخبرني بانعقاد خطبتها في الخميس المقبل، ويشدد على رغبته في حضوري، لم أدر بما أجبته، وكيف استقبلت طلقاته التي أصابت وسط قلبي مباشرة، حيث تجلس ملكته متربعة على عرش الحب، ران الصمت لبضع لحظات ثم وضعت الهاتف من يدي، ولم أدر ما حدث تماما بعد ذلك، لكن ما أتذكره جيدا أن روحي كانت تتصعد للسماء شيئا فشيئا، وكنت كذبيحة ذبحت بسكين صدأ ذبحت كقربان على نُصب الحب الزائف!

تتابعت الأيام بل والشهور، وأنا في عمق مأساتي، أتكبد خسائرها وحدي، وأضرم بجمرها بمفردي، لا أذكر كم العبرات التي تحيرت بمقلتي على فراقها، وكم التي جادت

فانهمرت لتطفأ ظمأ روحي، وتروي صحراء نفسي المجدبة.

لم تدخر أمي وسعا في البحث عن عروس لي، وسعت جاهدة لتحمل أوصافا استثنائية للغاية، حتى تنسيني من قد أضعت، ولا أخفيكم أنها حطمت الرقم القياسي في الأمر، حتى لم أجد بدا في الاستسلام لها بالنهاية، راحت تمطرني بسيل من المديح عن الأميرة التي أحضرت، إنها ابنة الأحساب والأنساب، والجمال الآسر الباهر، كما أنها تحمل شهادة جامعية، وأضافت بنبرتها النسائية التي لا تخفى على الجميع: خذ التي ستصونك، وتكرمك، وكل شيء قسمة ونصيب.

نظرت لها بفتور بارد، رددت بداخلي ومن الذي قال بأن الأخرى لم تكن لتصونني أو تكرمني، هل تراها لن تصون من ظفر بالفوز بها، ثم مضيت معها نحو منزل الفتاة.

اجتاحتني خواطر عدة أثناء ذهابي، فكرت في العودة أدراجي غير مرة، حتى وصلنا إلى بيت شاهق مرصع بالحسب والنسب، وأهلا ومرحبا بصحبتك الحاج فلان وريث عائلات فلان آخر. مضيت للداخل، وحتى هذا اليوم لم أشعر ولو طرفة عين بشيء من الإساءة من هذا البيت ومن كل من ضم بداخله وكانوا دائما على أتم استعداد وترحيب..

كانت الجلسة روتين بحت، تعارف، وماذا تعمل، وماذا تحب وماذا تبغض، والعجيب أن

إجابة كلا السؤالين ذاتها؛ عندما سأل الرجل عما أحب، كانت أول من حضر بقلبي، وعندما عاود سؤاله بالنقيض كانت نفس الإجابة، لكأنها احتلت كل تعبيرات الشعور لدى قلبي، ولم يعد ينبض لغيرها، على أية حال مرت فقرة الاستجواب، وماذا سنحضر وماذا ستحضرون، واختتمت بأنه لن نختلف وما بين المحسنين من حساب. ثم أردف الوالد إذا خير البر عاجله، لنقرأ الفاتحة، ثم أضرب قائلا: لقد نسيت تماما، يا أم العروسة، احضري نهى، لتقرأ معنا الفاتحة، ولتتعرف إلى خاطبها، وبعد لحظات أقبلت الفتاة، فأطلق والدها: تعالى يا نهى، إنه ماجد العريس، وهذه حماتك ثم سحبها من فوره أقصد أمك الثانية، اجلسي يا ابنتي بجانبي، لقد

كنا على وشك قراءة الفاتحة، ثم رفع يديه، وبدأ الجميع يُسِر بالآيات..

تعرفت فيما بعد إلى الفتاة، التي كانت تقتلني كلما نظرت بوجهها، كانت تكن لي احتراما كبيرا، تحمل عيناها الحب لي، ولأهلي، ولكل ما أحب. كانت حريصة كل الحرص على إرضائي وسعادتي، مرت فترة الخطبة وأنا أبادلها الاهتمام من باب الشفقة عليها، فأنا أعرف من يكون بمعنى الخذلان، أكثر من يعرف الكسر من الهجر. قلت لذاتي علني أحبها بعد الزواج، ما دام هناك توافق، واهتمام، فلنترك الحب جانبا الآن. وكانت أمي حريصة على إتمام الزواج بأقصى سرعة، كما أن

الإسراف في تأدية دور العاشق المتيم حدى بها نحو تعجل الأمر.

وبالفعل تزوجنا بيوم لا أذكر منه شيء مطلقا، سوى السعادة التي كانت تسكن بعيني أميرة حينما حضرت إلى الزفاف، تراها كانت سعيدة لأجلي، أم أنها سعيدة لأن عذاب الضمير سيفارقها، أم أنها سعيدة بالتخلص مني، أم أنها ابتسامة الشماتة الزائفة، لم أشعر بما يدور من حولي، وقمت بتمثيل دوي ببراعة، أساير كل ما يدعونني إليه، كإحدى عرائس مسرح الدمى!

وبقيت بعدها معلقا بأفلاك حبها لأسبوع كامل، كثمل هائم تائه، لا يهتدي إلى وجهة...

تقدمت الأيام وبدأت انساب مع تيار شفقتي تجاه نهى، كانت لا تدخر وسعا لإرضائي، زوجة

مثالية على أحسن ما يكون، لكن خطئها الوحيد أنها ليست من تمنيت أن تكون!

بعدها، جمعتها عدة مصادفات مع أميرة في مناسبات عائلية، لم تكن على علم بقصتي مطلقا، ولم أشأ أن أخبرها، توطدت بينهما العلاقات سريعا، وكونا صداقة مقربة. أخذ الانبهار من نهى مأخذه بشخص أميرة، لابد أن هذه الفتاة تملك نوعا من السحر بكل من يقترب منها، كانت تقضي الكثير من الوقت القليل الذي أقضيه معها تتحدث عن مفاخرها ومآثرها وكم أنها شخص أكثر من رائع، وهي لا تدري أنني أعرف بهذا منها، وأنها تشعل فتيل نار حبي المتأجج بداخلي. كنت أساير حديثها، وتطيب نفسي بسماعه، بل وصل بي الأمر أحيانا أنني

كنت أتعمد أن تبدأ بالحديث عنها، أعلم أنني كنت خائنا لنفسي، ولنهى، وللميثاق الغليظ الذي عقدته ووقعته بيني وبينها. حتى ضاق داخلي كثيرا، وأصبحت أبغض نفسي كليا.

حتى كانت أحد تلك الجلسات العفوية، وما إن بدأت نهى حديثها حتى صحت بوجهها وعنفتها بشدة، كادت أوداجي تنفجر غضبا حين دفعتها أرضا، مغلقا الباب من خلفي بشدة حتى توهمت أنه فارق موضعه. قضيت الليلة بالخارج، ولدى عودتي مع إشراقة الصباح، تمددت على السرير بكامل وقاحتي كأن شيئا لم يكن، فسمعت صوتا هاتفا من الغرفة المجاورة يبكي ويتضرع بحرقة يئن لها من كان له قلب، حاولت التغافل في بداية الأمر لكن لم أستطع

منع قدماي التي حملتني حيث جلست نهى، تشتكي إلى الله، وأثر ندبة في جبينها. احتقرت نفسي بشدة، شعرت بقدر من الضآلة أمام تلك الفتاة، أدركت أنني لا أستحق نهى، ولا أستحق لحظة أمضيها برفقتها، ندمت ندما كما أنه لم يخلق من قبل. ونظرت إلى نفسي " نظرة أخرى" إلى النعم التي أفاض بها الله علي، إلى الصحة، إلى المنزل، إلى السلامة، إلى المال، إلى الزوجة، التي لا أساوي قدر أنملة منها. ورحت أفكر في صمت ما الذي فعلت، وماذا أفعل، أفني أيامي وسعادتي أطارد ذكرى غابرة، أطارد الوهم، ما ذنب نهى؟، وماذا جنت لتتزوج من جسد بلا قلب أول عقل؟، صراف آلي يحضر لها الأغراض!، وإذا كانت تآلفت مع

أميرة إلى هذه الدرجة؛ فلابد أنها تحمل كثيرا من صفاتها، وسماتها الشخصية؛ فالأرواح جنود مجندة...

اعتذرت من نهى، وقطعت لها وعدا بإصلاح كل شيء، وبدأت أعلم نفسي الحب من جديد، خطوة خطوة مع اكتشاف الجمال الذي عميت عيني عنه بنهى، ورضيت بما قسمه الله لي، فجملها بعيني على أفضل مما رمت وتمنيت. وآنس الله شملنا بمولودة جميلة تحمل جمال أمها، أسميتها "سكن" لتذكرني دائما بالمغزى الذي ربطني بأمها، والوعد الذي قطعت لها. أما أميرة فلم يعد هناك ما يربطني بها، سوى ما أتمنى لجميع البشر من الخير، والتوفيق في

الحياة، أتمنى أن تنال سعادتها كما فعلت وتنعم بصفاء عيشها..

أعلم أن قصتي ربما لن تحدث كثيرا، لكن كل منا يحمل بداخله أميرة، في أمنيات نتتبعها بلا وهن، ونحزن كثيرا لفقدها، ظنا أنه الخير ونحن لا نعلم. ربما كنا نملك الأفضل ونلهث خلف الجيد أو المقبول، كأحلام زائفة رسمناها على جناح ريح جامحة، مضطربة، لا تبقي ولا تذر..

أتمنى أن أكون سببا في سعادة البعض بما لديه من نعم، وأداء شكرها، والحمد لله أن استعدت وعي في الوقت المناسب، فمن لم يجعل الله له نورا فما له من نور..

★★★

٣-دَقَّةٌ بِدَقة

هي زلاتنا التي نغفل عنها، نجترمها في حق أنفسنا، وحق من نحب...

نقع في شرك الزلل على حين غفلة من ميزان الحق الذي قامت عليه السماوات والأرض..

كنت صغيرا جدا أو أقل تعقلا من أن أعي العبارة التي كانت آخر ما حدثني به أبي على فراش موته، لم أدرك تماما ماذا كانت تعني قبضته على يداي المرتعشتين خوفا، وقوله لتلك العبارة. كان في هول الوقف ما يقطع ذهني عن

التفكير في الأمر، أو محاولة تحليله، ربما هي لغز أو مفتاح لشيء ما، لكنني لم أهتم مطلقا.

كانت روحي تنشطر إلى آلاف الذرات تخرج على وهن حينها، أموت فزعا في كل ثانية.

موت بطيء قاهر، ذاك الذي يصيبنا ونحن على قيد الحياة، لكن تلك القبضة كانت بمثابة صمام الأمان، الذي فتح سيلا من الألم بعد ارتخائها، ولست أحدثكم عمن فقد والده، بل من فقد حياته، بينما يتردد اسمه على الألسنة هنا وهناك، أحمد احضر كذا، وافعل ذاك، تجلد وكن رجلا، أنت الآن رب هذا البيت...

ولكن عن أي رجل تتحدثون!، وهل يخلق الرجال ما بين عشية وضحاها، هل ينام المرء ليستيقظ على أقصى ما قد يبتلى به، وفوق كل

هذا يستوي رجلا. أهكذا هو الأمر! إذا كانت الرجولة تلك هي أحرف نرددها على الألسنة، نجمل بها المواقف، فأهلا بها ومرحبا، لكنني الآن وعيت أنها أكبر من تلك الأحرف بكثير، هي الدنيا التي نخرج إليها لتسحقنا في ساحات الاختبار آلاف المرات، ثم تسجل نتائج من اجتازه ويوسم بهذه الصفة، الآن أستطيع قول أنني رجل أو أرقى للاتصاف بهذه الصفة.

على كلٍ باشرت المهمة الموكلة لدي، كانت كل مهاتي تتخلص في كلمة واحدة، ذاكر، ذاكر، ثم ذاكر أخرى، وبالفعل، ذاكرت وأنهيت مرحلتي الثانوية، التحقت بكلية جيدة، وأصبح يشار إلي بالباشمهندس حامي حمى نهضة البلاد، وزاد طوق آخر حول عنقي وهو محاولة الحفاظ على

مستوى التفوق الذي حققت، ومتابعة أختي الصغيرة، ورسم ذات الخطة المحكمة لها، حتى تتمكن من تحقيق النجاح الخاص بها، ليس كمهندسة هذه المرة بل طبيبة...

كنت أختنق يوميا، أغص بالألقاب التي جعل منها البشر جل همهم، يحرقني الأمل الذي تعلقه أمي علي فتكسر به ظهر تَحَمّلي، لطالما هرعت إلى المقابر حيث مرقد والدي، كنت أبثه شكواي، أسأله كيف اتصرف حيال الأمر، كيف أتجاوز العقبة التي سرمدت على حياتي بالكامل، بكيت كثيرا، كطفل أضاع والدته بالزحام واستحال رجوعها، الأمل الذي دفنته بصحبة والدي كان أكبر ما يحيا بداخلي، الأمل

الذي نتكأ عليه كلما أضنتنا الشدائد، وأثقلتنا المهالك، ودارت بنا في فلك الحيرة والوهن..

الأمل، الطاقة السحرية التي تظل تهمس بداخلنا أن بنهاية النفق النجاة، وأن أحلك الظُلَم هو ما يعقبها النور مباشرة، هو درع المقاتل، وسيفه، ورمحه، وكل شيء يحكم خطته قبل بداية المعركة، وما يلوح براية الظفر بالنهاية، هو ما فقدت وما زلت أفتقد إلى الآن....

بعد ذلك بفترة وجيزة، تعرفت إلى فتاة في الجامعة، لم تكن بنفس الكلية، لكنني كنت أراها بصفة شبه يومية، وسريعا ما توطدت بيننا العلاقات، ظللت أرعى حول حمى حبها لفترة، إلى أن انهار بي الجرف في جهنم العشق الزائف، ولم أعد أشعر بتلك الوخزة من

ضميري التي كانت تهاتفني ما بين حين وآخر،
كأن الله أمد لي حبالي في الغي، كنت أتحدث
إليها طوال اليوم تقريبا، لم نفرق بين ليل
ونهار، شروق وغروب، كل هذا لا يهم، تأخر
تحصيلي الدراسي، أخفقت بمادتين، كنت على
شفير الهاوية، لولا أن من الله علي لخسف بي.
كذبت على أمي وادعيت النجاح، ولكن
صدقوني أمك هي آخر شخص قد ترغب في
الكذب عليه يوما ما، إلا إذا كنتم تجيدون الكذب
على أنفسكم بالطبع. وكنت قد اقتربت من هذه
المرحلة، فلم تؤثر بي نظراتها كثيرا، كلما
رمقتني بعينها، كنت أقرأ من تبكي في صمت،
تئن بوهن قاتل: من أنت!!

لكنني لم أملك جوابا حينها على هذا السؤال، كان الران قد غشى كل شيء من حولي، وأسدل ستارا كثيفا على عيني، وقلبي قبل كل شيء...

وكما هو الحال، تقدمت علاقتنا خطوة، لم يعد يكفينا المحادثات الهاتفية المطولة، شبه المستديمة، بل أصبحنا نلتقي، على مرأى ومسمع! كان الحياء قد انصرم تاركا مسخ قلبينا من خلفه، تجددت اللقاءات وتعددت الأماكن، وتنوعت المواعيد ما بين صباح ومساء حتى يتسنى " لدنيا" اختلاق الأعذار لخروجها من المنزل، أحدثكم الآن وأنا أنظر بازدراء إلى ما كنت عليه، لقد كنت على علم بما يجري، هناك والدان يخدعان، تسرق أمانتهما على الملأ،

وكانت لصا حقيرا، لا يتوارى، متبجحا لا أهتم للعواقب!

مرت الأيام وكنت على موعد زائف لمسرحية العشق المحظور تلك، تأنقت إلى حد كبير، جلبت باقة توليب حمراء، وصوبت نحو المكان المنشود، ولكنني ما إن وصلت إلى هناك، حتى سقطت السماوات كلها على ظهري، فهشمته كذرات الزجاج المتناثرة بكل اتجاه، لقد وقعت عيني على آخر شيء لا أقول توقعت حصوله، بل لم يخطر ببالي مطلقا حتى في أبشع كوابيسي قسوة ومرارة، لقد آن الأوان، نعم، كانت تلك الرشفة الأولى التي تجرعتها من كأس خيانتي، خيانتي لنفسي، ولقلبي الذي دنسته على غير طائل، لأمي، لأمانة والدي التي لم

أصن، نعم لقد كانت "رضوى" الطفلة الصغيرة التي فارقت مهدها للتو، تركض باتجاه وغد يتهلل وجهه فرحا وسعادة، ولِمَ قد أسمه بالوغد برأيكم أليس كل منا غرسه بالختام؟، ألسنا نجني ثمارنا إن خيرا فخير، وإن شرا فشر!، ألسنا نتلقف ما صدر عنا ابتداءً، فلم الدهشة، وعلام الحيرة إذا؟!!

اجتاحتني أفكار عدة، هممت أن أسير باتجاهها وانهرها أمام الجمع الغير مُسَوِّيا سمعة أميرها بالأرض. أم علي أن انتظرها حتى انتهاء الموعد وأعود بها للمنزل الذي سيغدو لها محبسا بعد ذلك؟، أم أمضي لموعدي كأن شيئا لم يكن!، أم وأم وألف بعدهما خاطبت بها عقلي الذي شل بمعنى الكلمة، لكنه لا يستجيب لأيٍ

منها مطلقا. تسمرت قدماي بالأرض، رُحت أجر أذيال حسرتي بوهنٍ ساحق، قاتلٍ، مضنٍ، كوقع صدمتي، اليوم وللمرة الأولى أحسست ولو بالقليل من شعور والدا دنيا، شعرت بالحسرة، والألم الذي يخلفه الخذلان، شعرت بسكين الخيانة تذبحني لمرات عدة لا أكاد أحصيها. وكم كنت أقول أنني لبث في العشق يوما أو بعض يوم، وكنت على شَكٍ في تعداد أيامي، لكن اليقين الوحيد بأن تلك الطعنة بداخل قلبي، على قصرها كالمائة عام!

زحفت بأقدام لا تحملني حتى وصلت إلى سيارتي بعد جهد جاهد، قدت بسرعة جنونية، بكيت بحرقة تحاكي نيران قلبي الممزق، بكاءً يلملم أجزاء روحي المبعثرة ألما وخيبة

وحسرة، بكيت لأنني ضيعت أمانتي بأبخس الأثمان!

ارتعدت السماء، وهطلت أمطار غزيرة، لكنها لم تضاهي سيول عيني الجارفة، وفجأة لم أشعر بشيء مطلقا، كانت الأحداث أسرع من محاولة استيعابها، درات بي السيارة عدة مرات في الهواء، ثم كان كل شيء قد انتهى...

لم هناك ما يردده قلبي سوى " رب ارجعون"

لعلي أصلح ما أفسدت، لعلي استرد ما أشفقت منه السماوات والأرض والجبال، كان كل ما يتردد بأذني هو صوت والدي، وقبضته تشد على يدي..

ثم بدأ الهواء يتقلص برئتي، وتحتشد المياه مكانه، وتضيق أنفاسي شيئا فشيئا حتى انقطعت تماما أو هذا ما اعتقدت حينها...

بعد فترة من الوقت لم أعلمها أفقت على صرير بأذني، وأزيز أشعر أنه كان يصدر من داخلي، فتحت عيني بخفوت، وجدتني مزود بأشياء كثيرة تخرج من داخل جسمي هنا وهناك، حاولت النهوض فلم أقوى على ذلك مطلقا، رفعت يدي وألقيت بها على السرير، الحمد لله، ظننت أنني لن اتحرك ثانيةً، وأن نهايتي قد بدأت لتوها، لكن رحمة الله كانت أسبق من عقابه...

أمضيت نحو شهرين كاملين بالمشفى، كلما نظرت بوجه أمي، رأيت ما تنوء عن حمله

الجبال، رأيت صدعا لن يلتئم، وندوبا قد عجز الطب عن معافاتها. وحدها خيبات الأمل هي ما تقتل كل جميل معها، تستل من روح المرء سعادته وأمله الذي يحيا بداخله!.

ران صمت تام لأيام متتالية، كانت النظرات كفيلة بقول كل شيء، وقول ما يُعْجَز عن قوله، وقول مالم ولن يقال. الصمت هو أقوى سلاح في المعارك محسومة النتائج. هو الحصن الذي نلجأ إليه دوما، هو ما تعجز عنه جيوش الكلمات والعبارات، ولا يتقنه سوى محارب بارع، قد انطوت روحه على أن تئن في صمت، تبكي في صمت، ترى العالم من حولها في صمت...

ثم بعد عدة أيام، بدأت أمي الخروج عن صمتها أخيرا، مزقت شرنقة أنينها وقالت: بصوت يكسوه الشجون: اعلم أن هذه البيوت لا تقام على غير الحب، ولكن كن على يقين تام أن ما تدعيه ليس حبا، فهل رأيت يوما محطة قطار تحتفظ بملامح بعض من يطرقها ويتوارد عليها؟! محال إلا أن يكون حاملا لمزايا قد استحالت بغيره، وهذا الأمر يترك لتقدير المرء، ومدى استجابته لمراتع الهلكة، سترى كل الوجوه جميلة، وكل الأخلاق حسنة، وكل الأرواح متقبلة، لأنك لم تضبط مقاديرك منذ البداية. ثم دعني أسألك أمرا، هل تتوقع أن تتنقل بين هذه وذاك وتلك وتتزوج أي منهن، ألن تحدثك نفسك الآن ربما تكون قد رافقت غيري،

أو ما هو ضماني أنني الوحيد بحياتها، ودعني أذكرك بقولهم" من قتل يقتل ولو بعد حين" وكسرك لوالدين كان جل جنايتهم أنهم ائتمنوا خائن وخائنة ليس بالجرم الذي يمضي دون مجازة بالعدل، ثم إياك أن يخيل إليك أنني لست على علم بكل شيء، قد أمهلك الله، ومنحك فرصة ثانية، ربما لم تتوفر للبعض، فاختر مصيرك من الآن...

ثم غادرت المكان، لتتركني احترق منفردا في أعماق ندمي، وحسرتي. كلما انتابني شعور أنها ربما كانت نهايتي، أشعر بفزع تشيب له الولدان.. على كل حال تحسنت أحوالي، وغادرت المشفى، وكانت أول وجهة لي هي المقابر، ذهبت لزيارة أبي، قصصت عليه كل

ما قد حدث معي، وما رأيته من حال أختي، شعرت بقبضته تشد على يدي لتذكرني بأنني من نكثت بوعدي، وضيعت أمانتي، وخنت ذاتي قبل كل شيء، كأني به في ذلك اليوم وهو يقول" دقة بدقة" عندها فقط جال بخاطري ماذا قد تعني هذه الكلمات، غادرت المكان بعد جلسة طويلة، بحثت عن أصل الكلمات، فوجدتها أقصوصة لم استطع التوقف على صحتها كثيرا، وحتى لو لم تكن قد وقعت، إلا أن معناها هو الحقيقة المطلقة، الحقيقة التي قامت عليها السماوات والأرض، حمدت الله أنه لم يملي لي أكثر من ذلك، حمدت أني لم أنجرف أكثر مع تيار غفلتي، عدت إلى المنزل، عزمت على تغيير كل شيء، بدأت بتغير رقم هاتفي، ومحو

كل ذكريات دنيا من ذاكرتي، وإصلاح ما بيني وما بين الله.

في الصباح التالي ذهبت للجامعة، اصطدمت عيني برؤيتها بصحبة أحدهم، يبدو عليها انسجاما وتآلفا كبيرا، وكانت الصدمة الكبرى، لقد كان ذاك هو نفسه من رأيت يوم الحادث، وليت ظهري لها، ومضيت في دربي، لم يعد يعنيني من ومتى وأين، كل ما أفكر به الآن هو كيف؟ كيف أصلح ما أفسدته أيام الماضي، وبِتُّ على يقين بأن ذلك الشخص لم يظهر بطريق أختي أبدا ولكنها كانت منحتي من الله لأعرف الحقيقة، وأعيد ترتيب أدواري، وأصحح مسار حياتي، كان درسا عَز علي استيعابه ابتداءً، لكن الحمد لله أنها لم تكن النهاية...

أصبحت دقة بدقة كميزان راسخ في قلبي، لو أن كل منا يعي أن كل ذرة سيؤاخذ بها لم يجرؤ على الظلم قدر أنملة، الظلم ظلمات، ومن ظن أنه أفلت من عقاب الدنيا، فليبك على نفسه البواكي، فاليوم الذي تشخص فيه الأبصار هو أشد هولا وهوانا.. ومهما ظننت أنك قادر، فالله أقدر منك..

ليست دقة بدقة قصة ذاك التاجر الموصلي، ولا حتى قصتي مع دنيا، إنها حكمة سطرتها محكمة العدل الإلهية، المحكمة التي لا تفصل بين الشكاوى التي ترفع إليها، ولا يبقى بها قضية عالقة أو مسجلة ضد مجهول...

ومهما أعتقد المرء أنه أفلت، فلا يحسبن الله غافلا عنه، والسعيد هو من سدد دينه وهو قادر قبل أن يدركه في أحوج عوزه وإعساره...

★★★

٤-الشَّبَحُ الّذي فِي المِرْآة

على الرغم من أنني كنت صغيرا حينها، إلا أنني لا أزال أتذكر كل شيء حتى الآن، كأنه يعاد أمامي في بث مباشر لا ينقطع أبدا..

في ذلك اليوم استيقظت على صراخ أمي المفاجئ، كانت تصرخ وتبكي بشدة وتردد كلمات لم أفهمها، هرعت إلى غرفتها لأعرف السبب، فوجدتها تمسك بأبي من كتفيه وتهزه بشدة وتحركه ذهابا وإيابا، تسأله مرارا أن يجيبها، لكن أبي لم يجب أبدا، وحتى الآن يراودني شعور بسماع صوته وتلبية ذلك النداء.

وقفت منزويا في أحد أركان الغرفة، أحاول فهم ما يجري، هل هذه أحد مقالب أبي التي اعتاد تنفيذها؟، أم أنه مقلب مشترك بينه وبين أمي؟!، هواجس كثيرة كانت تجول بخاطري عندما باغتتني نحيب أمي العالي" لقد توفي كمال"، نزلت كلماتها كصاعقة أصابتني، أعجز عن استيعابها فضلا عن التصديق. كلمات أسدلت ستار أسود حزين على عيني أحسبه لم ينزع حتى الآن. هرولت نحو أبي أحاول أن أفسد عليهم المشهد، وتنتهي فصول تلك المسرحية، لكن شيئا لم يحدث. عندها فقط أدركت أنها حقيقة، وما يحدث ليس سوى الواقع، أما عن إدراك معنى أن أبي مات فصدقا لا أزال أعاني مرارته حتى هذه اللحظة..

أسرعت إلينا بعض الجارات لتري ما حدث، توجهت إحداهن نحو أمي تحاول أن تذهب روعها وتذكرها بالله، واتصلت الأخرى بأقارب أبي وأسرة والدتي، امتلأ المنزل عن آخره ما بين جار أو قريب أو صديق، ولا زلت لا أعي حقيقة ذاك الذي دعوه بالموت. أهو رحيل دائم؟، ذهاب من غير عودة؟، أم أنها زيارة غير محددة الأجل!، تذكرت حديث أمي لي ذات مرة بأن من يموت يذهب للسماء، أسرعت نحو النافذة أبحث عن أبي فلا أجد سوى السحب العابرة تطوق الأفق.

كان من بين الحضور أناس لا أعرفهم البتة معهم أدوات وأشياء لم آلفها آنذاك، توجهوا تلقاء غرفة أبي، وبعد بعض الوقت خرج أحدهم

يدعو أمي لتراه وتودعه الوداع الأخير. نظرتْ إلي أمي التي لم تستطع الكلام فأسرعت أحد الجارات وأخذت بي نحوها، أمسكت يدي بشدة كأنها تتكأ علي، سرنا نحو الغرفة ودخلنا لأجد لفافة بيضاء كبيرة ولا يبدو منها شيء سوى وجه أبي الشاحب. حدثتني أمي بصوت مرتعش لا يكاد يسمع: ودع والدك يا معاذ. ثم لم تتمالك نفسها حتى أغشي عليها من شدة البكاء، فحملتها الجارات إلى الخارج. عندها انفجرت في بكاء طويل لم يتوقف إلا بعد عودتنا من دفن أبي، لم أصدق كيف وضعوه في ذلك القبر وأحكموا إغلاق الباب، كيف تمكنوا من سحبي وأنا ملتصق بتلك اللفافة البيضاء، كيف استطاعوا أخذ روحي وكيف أحيا إلى الآن!

ظل الظلام مخيما على أرجاء منزلنا لعدة أسابيع، أناس يدخلون ويخرجون وتذرف أمي دمعات الفراق وترتدي السواد..

تغيب شمس وتشرق أخرى ولا يزال الحال كذلك. حتى اتصل جدي لأمي في أحد الأيام يأمرها أن ننتقل للعيش معه، حاولت أمي الرفض في أول الأمر لكنها استسلمت في الختام. في صباح اليوم التالي ذهبنا لزيارة أبي وأخبرته أمي بما حدث، ثم راحت تستأذنه في الرحيل كما كانت تفعل في حال الحياة، عدنا بعد ذلك للمنزل، حزمت أمي أمتعتنا وسافرنا في صباح اليوم التالي.

يسكن جدي بقصر كبير، أمامه حديقة واسعة متعددة الزهور والنباتات، كما قد اصطفت

بعض السيارات الفارهة أمام باب القصر، خرج جدي لاستقبالنا، أسرعت نحو ذراعيه التي حلقت بي عاليا وقتها، أخذ يمازحني ويداعبني، ثم سلم على أمي، وأشار إلى بعض الخدم بحمل الحقائب سار بنا نحو الداخل..

كنت أرى في جدي والدي الذي افتقده دوما، كما كان يبذل جهده للتخفيف عني وعن والدتي، ملأ عالمنا بالسعادة، كما ملأنا عليه عالمه الذي كان يحيا فيه بمفرده قبل ذلك، لكن هذه الفرحة لم تلبث طويلا حتى صفعتنا يد القدر بفقد آخر وبفراق آخر فقد توفي جدي..

ولكن في هذه المرة كنت أعي ما يحدث تماما. أعرف الموت، حقيقته، معناه، الألم الذي يخلفه، مرارة الفقد. أخرجت العمل بإتقان بارع،

أوصلت جدي إلى داره الجديد، أحكمت غلق الباب، دفنت آخر بقايا قلبي المنهك، ثم عدت للمنزل. وكالسابق تلقينا العزاء، وبعد بعض الوقت انتهى الأمر. وجدت أمي نفسها أمام عناء إدارة أعمال جدي الكثيرة، فأحضرت لي مربية ترعى شئوني على الرغم من أني كبرت حينها، وأصبحت لا أراها كثيرا سوى لتلقي على مسامعي بعض محاضرات اللوم والعتاب خاصتها، وكيف أنها أضاعت شبابها علي وأضاعت عمرها، ولا زالت تضحي من أجلي، ثم تذكرني بابن صديقة لها كان يدعى "يوسف" وكيف أنه متفوق في دراسته، مهذب وبار بوالديه. طوفان من اللوم كانت تغرقني فيه كلما لمحت لها طيفا.

أصبحت أبغض كل شيء حولي، البيت، الدراسة، أمي، نفسي، نعم نفسي التي كلما نظرت إلى المرآة رأيت شبحا بانتظاري. ما عدت أعرفني مطلقا، ولا يحضرني من معاذ السابق سوى اسمه فقط، التقطتُ هاتفي واتصلت ببعض الرفقاء الذين التقيتهم بجوار الجامعة، استقبل مكالمتي بحفاوة بالغة، وأخبرني أن أقابلهم بالمقهى المجاور. ارتديت ملابسي ووصلت في الموعد تماما. أطل من بعيد يسبقه دخان سيجاره الكبير، ينفث الدخان كغيمة تغطيه ولا يظهر منها سوى القلادة التي تبدو كجمجمة ضخمة تقبع على صدره. أقبل يصافحني على طريقة الشباب المعهودة، ثم جلس هو ورفاقه، يحاول أن يبدي اهتماما بي،

سألني عن سبب الحزن الذي يبدو علي واصفا إياي "بصديقي"، أصابتني الدهشة من هذا الذي يدعوك صديقا في أول لقاء لكما، لكني أجبته على كل حال، فهو أول من يسألني عن تلك الحال وينتبه لها، قال بعد أن زفر بعض الدخان: لا تقلق الأمر بسيط للغاية، والحل عندي.

نظرت إليه بتعجب: وما هو ذاك الحل السحري الذي سيشفي جراحي بكل هذه البساطة؟

ضحك كشيطان أوقع فريسته ثم أخرج من جيبه سيجارا وقال: خذ هذا هو دواءك.

رفضت كثيرا، وبعد إلحاح منه بتجربة الأمر فقط، لم أتمالك نفسي حتى أنهيت السيجار الأول على الرغم من السعال المتتالي الذي أصابني

فور تدخينه، أوهمني أنني سأسافر إلى عوالم
بعيدة عوالم لا تعرف الهموم والضغوط
والأحزان، ولكوني فريسة سهلة، سرعان ما
سقطت في الفخ. جمعتنا بعد ذلك عدة لقاءات
كانت كلها تدور في فلك التدخين والمخدرات،
حتى انتهى بي الأمر مدمنا!

لم أعد اكتفي بتلك القاءات قصدت الحانات
والبارات، حتى أني طرقت الملاهي الليلية، لم
أعد أرى أمي مطلقا، كنت أعود عند ذهابها،
وأغادر قبل مجيئها، أترنح أمامي مرآتي ولكني
أيضا لا أرى سوي ذلك الشبح!

مرت الأيام، وعند ترددي على أحد الحانات،
وجدت عجوزا عند الباب، تسأل عن ولدها،

رمقتها بنظرة غاضبة ثم أشحت بنظري عنها ودخلت الحانة.

في تلك الليلة عدت مبكرا للمنزل، ولم أتذكر شيئًا سوى تلك النظرة من العجوز، كانت تحمل كَمّا من المعاني تعجز عن حمله الكلمات، ولا تقدر الحروف على البوح به، وددت لو أني أرعيتها اهتماما، بدت صادقة في سؤالها، ولكن على كل حال، لم أطل التفكير في الأمر، فرحت أغط في نوم عميق.

وفي مساء اليوم التالي ذهبت إلى حانة أخرى وتفاجأت بوجود تلك العجوز أيضا اقتربت منها لأسألها ما الذي تريده بالضبط، فابتعدت مسرعة يبدو عليها الذعر، فتركتها ودلفت للداخل.

وكلما مرت الأيام كلما ازددت سوءا، وازداد كرهي لمن وما حولي.

بعد ذلك علمت بذهاب أمي إلى الجامعة الخاصة التي التحقت بها، لتجدني قد استنفذت سنوات الدراسة. عادت للمنزل يمزقها الغضب كانت المرة الأولى منذ فترة التي أراها صباحا، لم تنتظر حتى موعد استيقاظي بل صعدت للغرفة وطرقت الباب ودخلت لتسحبني عن السرير، ثم أمطرتني بوابل من القذائف الملتهبة، عتاب، لوم، شتائم، وما شئت قوله. كانت المرة الأولى التي أراها تزفر الغضب هكذا، حاولت الاستخفاف وتجاهل الأمر كما أفعل عادة للتخفيف من حدة الموقف، لكنها صفعتني

صفعة، جعلتني استيقظ تماما على الرغم من زيادة جرعة المخدر التي تناولتها ليلة أمس!

صاحت بوجهي بشدة: انظر أمامك، انظر في المرآة، أخبرني من هذا؟

أين معاذ ولدي؟

أين ذهبت به أيها المنحرف بائع الأفيون؟!

ثم ضربت بكل ما أوتِيَتْ من قوة على صدري لتطرحني على السرير، انفجرت في البكاء، ثم أسرعت بمغادرة الغرفة. كل هذا وأنا في صمت تام، كأنما عقد لساني وسُلبت الحركة. اسندت ظهري إلى جانب السرير، ورحت أفكر في سنوات عمري التي مضت، أتذكر أبي وضحكاته، أتذكر جدي عندما كان يحملني بين ذراعيه ويرفعني عاليا في السماء، تذكرت

السعادة التي فارقتني وانصرم حبل ودها معي كأن بيننا بعد المشرقين، تذكرت دلال أمي لي وحنان مربيتي والقصر الكبير الذي ضاق بي كقفص. وقفت أمام المرآة، أطالع آثار السنين، وكيف غدا ذلك الشبح الذي يسكن مرآتي، ازداد شحوب لوني، وزال بهاء وجهي، كنت كطيف زائل، لا لون ولا حياة. كنت كما وصفتني تماما أمي "بائع الأفيون".

قررت أن أمضي اليوم في المنزل، طلبت من الخادمة إعداد كوب من القهوة، وجلست أشاهد التلفاز، لا أتذكر ما كنت أشاهد يومها، فقد كنت أحاول مسايرة الأحداث وأحيا كشخص عادي. وبعد قليل رن هاتفي ليظهر اسم صديقي القديم، الشيطان الذي جرني إلى مراتع الهلكة، لم أجب

من المرة الأولى، فعاود الاتصال ثانية، أخذت الهاتف لأجيب، فراح يتلون كعادته بالاهتمام الزائف ودعاني للخروج برفقتهم الليلة، قلت ما من مشكلة، ربما استطعت الخروج من هذه الحال، فإذا استقرت لي نفسي تركت الأمر بالجملة.

حل المساء سريعا، وذهبنا إلى أحد البارات، جلسنا في جناح خاص لا أتذكر معالمه جيدا، كان المكان يعج بالدخان ورائحة المخدرات، والكل مرتنح في حالة من الانتشاء يصعب معها إدراك الحال، انتهت السهرة التي امتدت لأطراف الفجر، خرجت اتخبط في الجدران حتى فارقت المكان، وخلال عودتي مترنحا أسير في بعض الأزقة الضيقة، إذ بي أسمع

عويلا عاليا يضج به المكان يصيح بقهر بالغ" ولدي، ولدييي"

سارت بي قدماي التي كانت تهتز الأرض من تحتها فإذا هي تلك العجوز تجلس بقرب إحدى حاويات القمامة الكبيرة تحمل بين ذراعيها شاب لونه أزرق مشرب ببعض البنفسجي الغامق، يلف حبلا على يده، وبيده الأخرى حقنة مخدرات. يبدو أنه توفي إثر إفراطه في تناول الجرعة، لم أستطع حتى أن اقترب، كان صراخها المدوي يرعبني وبشدة، سارعت اتخبط بالجدران حتى وصلت إلى الطريق العام، ولكن الصرخات كانت تطاردني، كنت أراني تلك الجثة، وأري أمي تلك العجوز، فازددت هلعا ورحت أركض رغم ترنحي ولكن الصوت

لا يزال يصرخ بأذني، تعبت من الركض، وتذكرت صفعات القدر المتتالية، وصفعة أمي بالصباح، وتلك الصفعة التي على غير موعد..

بعدها سمعت قرآنا يصدر من مسجد مجاور في الوهلة الأولى، فكرت بالذهاب، ولكن كيف بتلك الحال التي أنا فيها الآن، ثم حملتني قدماي نحوه، قصدت المكان المخصص للوضوء، أخذت أعصف بذاكرتي طويلا حتى أتذكر كيف أتوضأ، وكيف كان جدي يفعل ذلك، وبعد جهد جاهد أتممت الأمر، وذهبت نحو المصلى، انتابتني رعشة غريبة سرت إلى أجزاء جسدي فانتفض لها قلبي، لم أعرف هذا الشعور من قبل، ولم أفهم سببه حتى الآن، توجهت للصلاة بجانب أحد السواري، فأحسست أني أصلي

لأول مرة في حياتي، كانت صلاة مختلفة عن التي كنت عهدتها في صغري. أحسست براحة وهدوء منقطع النظير، في السجود فلك آخر ذهب بي نحو ملكوت ثانٍ، كنت أشعر بروحي التي هجرتني تعود إلي مع كل دمعة تسقط من عيني، لم أشعر بنفسي وببوحي الطويل حتى بللت مكان سجودي بدمعات الندم، الدمعات التي غسلت الران الذي سطا على هذه الروح وغشي ذلك القلب منذ زمن بعيد.

انتهيت من الصلاة إثر رفع المؤذن للأذان، نظرت بجانبي فوجدت ملامح بدت لي مألوفة في أول الأمر، نظر نحوي مبتسما وقال بحبور: يوسف. كان له نصيبا كبيرا من اسمه" يوسف" سماحة وجهه وابتسامته أنستني بغضي له أثناء

محاضرات أمي المعاتبة التي كانت تصدرها بإنجازاته، واريت نظري أشعر بالخجل، حاولت تجاهله. وبعد الصلاة أتي نحوي وأجرى معي حديثا سريعا طالبا رقم هاتفي، وودعني بتلك الابتسامة، ثم انصرف كل في وجهته.

تعجبت من فعله ذلك وعدم نفوره مني ومن رائحة الدخان التي علقت بثيابي. وهنا أدركت سر نجاحه وتفوقه إنها الصلاة ذاك الرباط المتين بينك وبين السكينة والطمأنينة وراحة البال. اللحظات التي تفصلك عن الموت وأنت في عالم الأحياء. المورد الذي يروي ظمأ السنين، ويزيل غبار الأحزان.

هاتفني يوسف بعدها عدة مرات، استطعنا تكوين صداقة على إثرها، نسيت حياتي السالفة

ورفاقي تماما، وهبني الله السعادة من جديد، وتغيرت حياتي كلها، ومنذ ذلك الحين لم أعد أرى الشبح في مرآتي وصار بإمكاني أخيرا رؤية نفسي "معاذ"

أكتب إليكم هذه الكلمات لأخبركم أنه ليس كل فَقدٍ نهاية الكون، وكل وداع ليس هو النهاية، ربما كان بداية لدروبا أخرى مشرقة لم تتفتح أعيننا عليها. ليست كل صفعات القدر مميتة بل هي مجرد تذكير بأهمية الحياة، لا تجعل حياتك تتوقف على أحد، وإن ماتت فيك الروح يوما سارع بإيقاظها في رحاب السجود، اغسلها بالعبرات الطاهرة، ولا تستلم أبدا مهما تكررت المحاولات ثم إياك أن تصير يوما (الشبح الذي في المرآة).

★★★

٥-مُذَكِرَات مُنْتَحر

بدأ الأمر عندما رفض والدي ارتباطي بالفتاة التي أحب. حاولت إقناعه مرارا بالأمر، لكنه كان يرفض في كل مرة مبررا رفضه بعدة أعذار، أنت لازلت صغيرا وعقلك غير مكتمل بعد. عادات الفتاة لا تتفق معنا. لقد اخترنا لك عروسا منذ صغرك... كلمات طالما أزعجتني ولم أجد لها إجابة أو حلا، فأنا لا أستطيع العيش بدون الفتاة التي أحب، وأعرف أبي لن يتراجع عن قراره....

فكرت كثيرا في إيجاد حل ما، أو محاولة نسيان تلك الفتاة فلم أستطع مطلقا، كل يوم كان العالم

يزداد في وجهي شحوبا، حتى تلحف بالسواد الدامس، شعرت عندها أن الحياة لا تشكل فارقا كبيرا بالنسبة إلي، وما معنى الحياة التي نحياها كأشباح نتسلل بين عالم البشر!

وفي أحد الأيام جلست إلى جوار النافذة أتأمل حالي وما وصلت إليه من شتات الأمر، أخذت أفكر مطولا في دوائي المستحيل، شردت إلى درجة أنني لم أسمع نداء أمي المتتالي حتى أقبلت ووضعت يديها الحانيتين تمسح بهما شعري، التفت إلى تلك النفحة التي كنت أظنها أتَتْ من الجنان، وقعت عيني في عين أمي مباشرة، لم أنتبه لنفسي إلا بعد بكاء طويل بين ذراعيها وهي تربت على ظهري وتبكي هي الأخرى، ظلت تحاول تهدئتي كثيرا، حتى

انقطعت عن البكاء. وكان لتلك الدقائق على قلتها تأثيرا كبيرا بداخلي، نظرت إلى أمي نظرة وداع طويلة، ثم خرجت مسرعا أتجاهل نداها المتتالي علي وقلبي يعتصره الحزن، خرجت أهرول صوب جسر عالي حتى أنهي تلك الحياة التي لم أعد أحتملها مطلقا.

كنت حريصا على أن أصل بأقصى سرعة حتى لا يتبعني أحد أخوتي أو رفاقي، وصلت في وقت قياسي، عشرون دقيقة فقط كانت تفصلني عن إنهاء معاناتي، صعدت إلى أعلى الجسر، ألقيت نظرة أخيرة على عالم الأحياء، أغمضت عيني حتى لا أتراجع عن القرار، وما إن هممت بالقفز حتى أمسك بي أحدهم بشدة، التفت أرمقه بنظرة كلها غضب، فلم اتمكن من ذلك، كانت

ذلك الوجه المشرق والابتسامة الندية مما يصعب أن تعبث تجاهه، نظر إلى نظرة احتواء كأنه احتضنني بعينه، هدأت من فوري، فحاول مساعدتي على النزول، ربت على كتفي ثم ابتسم قائلا: أنس.

قطّبتُ من بين حاجبي ونظرت إليه بتساؤل ولكن كانت نفس الابتسامة والجواب: اسمي أنس، ثم أردف مسرعا والكريم؟

لم أتمالك لساني الذي أجاب: سامح، امسك يدي بشدة كأنه يخشى إفلاتها، سرنا على طول الجسر، كان صامتا للغاية جل ما يفعله هو الابتسام فحسب، لم أكن أدري سبب تأثير تلك الابتسامات المتتالية علي، لكنها كانت تبعث بداخلي نوعا من الهدوء والسكينة التي كنت

أفتقد إليها في الفترة الأخيرة. انتهى بنا الطريق نحو مسجد مجاور، اقتادني نحو بابه قائلا: هنا تحدث المعجزات، اذهب ثم اطلب ما أردت بصدق، وسيتحقق كل ما تريد.

دلفتُ إلى داخل المسجد الذي لم أدخله لأشهر مضت. قصدت المكان المخصص للوضوء، كانت همومي تنساب مع قطرات الماء المنفصلة عن جسدي، أحسست براحة كبيرة، وفقت للصلاة، انعزلت عن العالم تماما، نسيت كل شيء أبي، الفتاة، أمي، وأخذت أدعو مطولا وارجو من الله أن يوافق أبي، وبعد الكثير من الوقت، انهيت الصلاة. ثم خرجت من المسجد، تفاجأت بانتظار أنس بالخارج، نظر إلى بابتهاج

ثم قال: أرى أن حالتك أفضل الآن، ثم أردف مازحا هل ستدعوني لأشرب معك الشاي أم لا؟

ابتسمت في وجه قائلا: بالطبع.

توجهنا إلى مطعم مشهور، صعدنا إلى طابقه المرتفع، جلسنا حيث أطل على النيل، وطلبت إحضار الشاي، نظر إلي أنس ثم قال: ليس هناك مشكلة ليس لها حل، ولا ما يستحق أن تنهي حياتك لأجله، ثم ابتسم مردفا استعن بالله ولا تعجز.

أخذت شهيقا طويلا ثم أجبت: ونعم بالله.

تناولنا الشاي ونزلنا إلى الطريق، شكرت أنس على ما فعله معي، أخذت رقم هاتفه، ثم مضى كل منا إلى وجهته.

سرت نحو المنزل، وصعدت الدرج بتثاقل، كأنني لا أريد العودة، فتحت لي أمي الباب، سلمت ودخلت إلى غرفتي مباشرة دون أن أتكلم، أخذت أقلب بين صفحات بعض الكتب، وبعد فترة قصيرة أقبلت أمي متهللة تزف إلي البشرى أن والدي قد وافق أخيرا على تلك الزيجة التي كنت أرنو إليها، عانقتها فرحا، وخرجت مباشرة وشكرت والدي وحرصت على توثيق كلامه بتحديد موعد للذهاب إلى منزل الفتاة.

لم أكن أستطيع الانتظار طويلا، اخترت مساء اليوم التالي، وعند حلول الوقت ارتديت أفضل ثيابي، وذهبت أنا وأمي وأبي إلى منزل الفتاة، ولم ننسَ شراء أفخم الهدايا في طريق الذهاب.

وعندما وصلنا إلى منزلهم، كانت الوجوه واجمة للغاية، وترحيبهم غث بارد، نظر إلى والدي نظرة عتاب فبادلتهم بنظرة رجاء دفعتهم إلى إكمال تلك الزيارة على أية حال، راح والديّ الفتاة يرهقون والدي بمطالب كثيرة ومُبَالغ فيها إلا أن إصراري على الأمر دفعهم في النهاية إلى الرضوخ والاستسلام..

تمت الخطبة سريعا، وحددنا موعد الزفاف، كنت مشغولا بشدة بالترتيبات التي حرصت على أن تكون أفضل مما يرام، ولكنني لم أنسى دعوة "أنس" الذي جعله الله سببا لكل ما أنا فيه الآن.

كان الزفاف أسطوريا بمعنى الكلمة، فقد كلف والدي الكثير من المال لإرضاء عائلة الفتاة،

واختتم الحفل بالذهاب إلى شهر عسل -على حد زعمهم- إلى إحدى الدول الأوروبية، سامتني الفتاة فيه كل ألوان العذاب، كانت تستنكر علي كل شيء حتى طريقتي في الحديث، تتأفف مرارا وتكرارا، تتعمد إحراجي دوما، كلما طلبت منها شيئا كانت تصيح بوجهي افعله لنفسك، أنا لست خادمة لك. كلما خرجنا للتنزه كانت مولعة بالتقاط الصور ورفعها على مواقع التواصل الاجتماعي، وتزينها بكلمات الحب الزائف التي لا أسمعها منها مطلقا.

كنت أصبر نفسي قائلا: لعلها تتأقلم مع الأيام، لكن مرور الأيام لم يزدها سوى قبحا وجهامة، فكل يوم يمر كان يُسْقط أحد أقنعتها الزائفة، التي أعماني عشقي السابق لها عن رؤيتها.

حينها كنت أعي معنى الانتحار بحق. وتجرعت مرارة الندم في كل يوم. مر ذلك الشهر كأنه عام كامل، وعدنا أخيرا إلى المنزل، وأنا في حالة أسوأ من التي كنت عليها بالسابق، ووددتُ لو أن هذا كابوسا وسأستيقظ منه بعد قليل. كانت الأيام تمر يوما بعد يوم لتزداد زوجتي سوءا وازداد في حزني وندمي، ندمي على عصيان والدي، ندمي على حياتي البائسة التي أحياها، بل وندم مضاعف على محاولتي إنهاء حياتي في السابق.

كم تمنيت لو عاد بي الزمان ولم أدعُ بتلك الدعوة، ليتني دعوت بتوفيقي للخير وصلاح حالي، ليتني لم أتعجل لإرضاء قلبي الذي عناه العشق الزائف. وبينما تصارعني نفسي الندم

على كل قرار اتخذته في الماضي، اقتادتني قدامي نحو المسجد، لم أدرك ما كان يحدث حولي مطلقا، ارتميت برحابه الطاهر وأخذت أبكي وأبكي وأتضرع إلى الله أن يصلح ما أنا فيه، رددت كثيرا أن يدبر الله لي..

لا تدري كم الراحة التي كنت أشعر بها بعد ذلك، أنهيت الصلاة وكأن جبلا قد أُزيح عن كاهلي، التفت إلى جواري فوجدت صديقي القديم "أنس" مبتسما في هدوء كعادته..

أكتب هذه الكلمات الآن إلى كل مهموم مكروب يشعر أن هذه النهاية، وأنه ليس هناك ما يدفعه للحياة، إلى كل من أراد سلب روحه التي ليست ملكه من البداية، حرر تلك الروح من عناها وابعث شكواك مغلفة بدمع الاستغاثة لخالقك، استعن بالله ولا تعجز، فحتما سيأتيك الجواب..

★★★

٦-ثُمَ لَمْ يَبْقَ أَحَد

كلفني الأمر كثيرا لأدرك أننا من نختار أقدرانا.. نعم، كل منا يختار مصيره، وينسج خيوطه بيده...ليس هناك من يتحكم في خيباتنا المتتالية سوى ما أبرمناه من قرارات قادت أقدامنا نحو الهاوية.. أعرف أن الأمر قد يبدو غير مقنع، إلا أن تجربتي تستطيع إثباته وبالبراهين الدامغة....

كنت ذات حظ وافر، تفصلني عن سماع جملة " بالرفاه والبنين" لأجيب "العقبى عندكم في المسرات"، ساعات معدودة، فقط دورة للعقارب ووصولها إلى ذات المكان، هي ما كان يحكم

مصيري ذلك الوقت.. ساعات خطت نهاية البداية لقصة لم يكتب لها أبدا "كان يا ما كان" ككل عروس ليلة زفافها، تحلم بالأبيض، والحياة السعيدة المستقرة، بالحب الذي لم أعرفه قبل أن ألتقي بطارق، لكن وبكل أسف، كانت البداية ممزوجةً بالأحمر القاني، وعبرات الفقد، وهول الصدمة، وفاجعة الفراق..

تعرض طارق لحادث سير أودى بحياته على الفور.. وزهقت نفسه قبل أن يتسنى لي وداعه، لم أنل ولو حتى نظرة وداع أخيرة.. وصلت إلى المشفى في حالة هلع كامل، من هول فاجعتي لا أتذكر شيئا مما حدث وقتذاك، سوى أنني كنت أختبر انتزاع روحي في كل ثانية، تقارب

الحلقوم ثم تعود أدرجها من جديد.. أُقْبَضُ في صمت، وبمعزل تام عمن حولي..

في الحقيقة لم يكن طارق بمثابة زوجي فحسب، بل كان نصف روحي التي كنت أحسبها لم تخلق، وبعض نفسي التي كنت افتقد.. الهبة التي لم أوفِ شكرها أبدا، السكينة التي سلبها الموت مني.. الحب الذي لم أعرف حقيقة وجوده قبلا، وقد واريته الثرى يوم فَقْد طارق...

طارق الذي أنقذ حياتي من حادث سير مفاجئ قبل ذلك، لم يستطع المحافظة على حياتي الحقة الآن، استلته المنية بلا ذرة واحدة من الشفقة، ليتركني كظل باهت، يمشي بين الأحياء على استحياء فيما بعد..

بعدها فقدت إحساسي بكل من وما حولي، تضاءل النبض في قلبي حتى غدا كالعرجون القديم. مجرد عضو يضخ الدم بجثة تتنفس!

تتابعت الأيام، وخلع الجميع حداده ماعدا قلبي الصغير، الذي توشح بظلمة الفقد يومها، وأضاف إليها ظلمات بعضها فوق بعض بعد ذلك..

مرت فترة يسيرة، وخلع الجميع ستار الحياء، هذا متقدم لخطبتي، والبعض يقترح فلانا، والآخر يفاضل بين الفلانين، وثالث يتقدم نيابة عن شخص لم يسأله عن رأيه حتى!!

كسلعة تباع في مزاد علني، يضارب الجميع حتى يحصل عليها، ويفوز بالربح بها. رفضت عروض الجميع، ووضعت لافتة تشير" بعدم

الاقتراب" ..نسجت من حولي جدارا عاليا وَشَيّتُ نهايته بأسلاك شائكة، وصنعت من خلفه حقلا للألغام على افتراض تجرأ أحدهم وقرر العبور!

ومرت بي السنوات التي لم أميز فيها بين شروق وغروب، ربيع أو خريف، حر أو مطر، فجميعها يمر سواء على الموتى، وهل حدث واشتكى أحدهم يوما من غزارة الأمطار، ودوي الرياح، أو ارتفاع الرطوبة!!

كل الأوقات مرت كقهوتي التي أدمنت، داكنة، بلا ذرة واحدة من السكر!، وأنا اليوم على يقين تام حتى لو كنت وضعت بها طنا كاملا، لم يكن ليحدث أية فارق!؛ فاستشعار الحلاوة والمرارة

يقبع بالقلب دون اللسان، وكم من الابتلاء قد يستعذب المرء، وكم من العطايا قد يبغض!..

مرت خمس سنوات، وأصبحت أختي الصغيرة عروس فجأة، حتى أنني لا أتذكر كيف عبرت هذه المسافة، وكيف استوت فتاة جميلة يطيب النظر إليها، التفت التفاتة صغيرة نحو شرودي، وعدت لأجدها عروس جميلة يطرق بابها الفرسان من كل اتجاه، وبالطبع كما وسمت العادات في كثير من بيوتات المعمورة، فإنه يحظر على الأخت الصغرى الزواج قبل أن ترتحل من هي أكبر عن المنزل.. خضت الكثير من النقاشات الطاحنة، والمعارك الدامية في سبيل إقناع والداي، أنني لا حاجة لي في

الزواج، ولا أصلح له مطلقا، في الواقع لم تعد السعادة تليق بي، فالأشباح لا تعرف السعادة!!

وبالفعل بعد جهود مضنية، وتقدم من لا يرد، رضخ والداي إلى فكرة تزويج " سلمى" وعدم الوقوف بطريق سعادتها واستقرارها، وأصابني من السعادة في ذلك اليوم ما أعجز عن وصفه حتى، لم تكن سلمى بمثابة أخت لي فحسب، بل كانت ابنة في صورة شقيقة...

وتتابعت الأعوام، لتأذن ببزوغ قمر جديد بعائلتنا لقد صارت الصغيرة " سهلية" كالبدر عند التمام. كما أنها أنهت دراستها، وقد حان الوقت لترحل هي الأخرى نحو بداية حياتها. وكانت الأمور أيسر كثيرا عن سابقتها هذه المرة؛ فسلمى التي ربطوا مصيرها بي في

السابق هي الآن أم لثلاثة أبناء، وهكذا ستمضي الأيام بسهيلة هي الأخرى..

وبالفعل تزوجت سهيلة وشعرتُ بالقيد يتلاشى أثره عن عنقي، وأزيلت عقدة أنني سأكون سببا في " عنوسة" أختاي، والآن يمكنني العيش بسلام تام مع أشواك ذكرياتي في كهف أحزاني الصغير...

لكن ما حدث بعدها، كان مباغتا إلى حد كبير، ظننت أنني استبعدت مدلول الفقد من قاموس مصطلحاتي إلى الأبد، ونسيت أن الأقدار ما زالت تحمل في جعبتها لي الكثير.. لقد وقع أبي طريح الفراش، وساءت حالته كثيرا.. لاحت النهاية تسدل ستارها بوهن، لتختم حكاية السند والعز والفخر، الذي عايشته طوال حياة والدي،

الذي غدا فرقاه بمثابة فجوة كبيرة في قلب مهترئ من الأساس!!

واصلت حياتي بعدها، ليس كالسابق، ولكن كان على مواصلتها على كل حال، فقد أصبحت رفيق أمي الوحيد، والداعم المنفرد الذي يذود عن حياة شقيقتاي، والملجأ الآمن عند الخطوب والنوازل...

وأعجبُ كثيرا من قدر الاحتواء الذي حزته وصدرته إلى الجميع. لقد كان قلبي قادرا على حل كل معضلة تواجهه، إلا المعضلة الوحيدة التي كانت ومازالت تؤرقه وتدميه إلى الآن. لقد داويت جل جروحهم في حين عجزت عن تطبيب حرجي الوحيد، وساندتهم عندما لم أجد من استند إلى جواره مطلقا!!

ورحلت سفينة معاناتي ثانية، حتى استقرت على هاوية أخرى، ترديت من فوقها إلى أسفل سافلين الجحيم؛ فبين عشية وضحاها صُدِمنا بحقيقة إصابة والدتي بمرض قاتل_ عافاكم الله_ وكانت في مرحلة متأخرة حرجة. استطاع الطبيب بما أوتي من علم أن يتنبأ بمدة يسيرة قد تقضيها بيننا على أقصى تقدير ممكن. وبالطبع أخفيت عنها حقيقة مرضها، وأقنعتها بأن ما تعاني أعراض عابرة، وسرعان ما ستزول..

قررت أن امنحها أمنيات عالقة قد عجزت عن تحقيقها فيما مضى، وبالفعل أنجزت قائمة طويل ضمت أمنيات يسيرة، كانت جل ما تاقت في هذه الحياة، إلا أمنية وحيدة، كانت عصية لدرجة المستحيل.. خارجة إلى حد بعيد عن

حدود الممكن والمقبول. لقد طلبت مني الموافقة على عرض زواج قُدمَ إلى!!

في البداية جهزت جيشا عتيدا من الحلول التي باءت جميعها بالفشل. ثم انتهجت الإضراب عن الطعام، والجلوس بمفردي. إلى أن جاء يوم اشتد ألمها كثيرا، وصارحتني بمعرفتها للحقيقة، وأن مقامها لن يطول كثيرا، وأمنيتها الأخيرة في الحياة أن تطمئن علي إلى جوار شخص يحميني ويصونني بعد وفاتها. وبعد نقاشات طويلة، لم أجد بدا في الاستسلام إلى رغبتها، ومطاوعة أمرها. وبالفعل تزوجت من رجل قد سبق له الزواج من قبل، كوني أعاني من " نائبة العنوسة" فأنا فتاة انقطعت محطاتها في قطر الزواج، وأصبحت مشردة على طرقات

اليأس المهجورة، ومن ذا الذي يرغب في الاقتران " بالأرملة السوداء" على أية حال؟!..
نظرة المجتمع إلى الفتاة التي تأخر زواجها كنظرته إلى حلوى مكشوفة ملقاة على قارعة الطريق، لا يجترأ الكثير على الاقتراب منها، ومعرفة ما إن كانت لاتزال صالحة للاستهلاك الآدمي...

تزوجت " حازم" الذي لم أعرف عنه شيئا قبل الزفاف، سوى أنه سبق له الزواج من قبل.
يسافر إلى إحدى دويلات الخليج العربي، كما أن لديه ابنة، ويريد إتمام الزواج بأقصى سرعة ممكنة، كما قد فعلنا بالضبط. حتى أنني لم أكلف خاطري سؤاله عن سبب الطلاق، أو حتى سبب رغبته في زواجي...

كانت البداية هادئة نوعا ما، حياة روتينية بحتة، من الخارج نبدو كزوجين يعيشان حياة سعيدة، حتى بدأ الشك ينشر أروقته بيننا في الكثير من المواقف، وهنا أدركت ما قد يفعل داء الشك بحياة صاحبه.. ليس كفيلا بإنهاء حياته الزوجية فحسب، بل إنهاء رمق الحياة من جميع علاقاته أيضا !!

حاولت إقناعه بضرورة الذهاب إلى طبيب نفسي، فاتهمني بالجنون، وأنني أعلق عُقَد الماضي خاصتي على كاهله. ولا أخفيكم كانت نعرة الرجولة والهيمنة متأججة لديه جدا، إلى درجة إنهاء زواج والإطاحة بطفلة ليس لها جرم بالحياة سوى كونها ابنتا له.. لكن خوفه من إنهاء زيجتين والظهور بمظهر المخطئ الفاشل،

حدا به نحو النزول على رغبتي، وبالفعل ذهبنا لطبيب حاذق. فأخبرنا أن فترة العلاج ربما ستطول نوعا ما.. أظهرت له المزيد من الدعم، وأخبرته أنني سأكون معه حتى ما بعد النهاية..

مر شهر، فالثاني، حتى بلغ الأمر ستة أشهر، فبدأ يتأفف عند موعد زيارة الطبيب، ويضع العراقيل، حتى لا أكون برفقته، لم اضغط عليه كثيرا، واكتفيت بأن يذهب فحسب ويكمل مدة علاجه...

بعدها استيقظت في إحدى الليالي على رائحة غريبة بالبيت، تسللت من غرفة نومي، فإذا بالمكان يعج بالدخان المتصاعد من مكان جلوسه، يبدو من بين الضباب كنافخ الكير، وقد آن الوقت لتحرق رفقته قلبي.. توجهت نحوه

وواجهته مباشرة، فانهال علي بالضرب، حتى رعف أنفي، وأحدث ندبة كبيرة في جبيني، وقبل كل شيء حطم قلبي المنكسر ونثره كرفات رَمٍ في إعصار غضبه الهائج...

هاله رؤية الدماء تقطر مني في الأرجاء، حاول الاقتراب ليتبين ما حدث، فلم امنحه الفرصة، وكيف قد أفعل ذلك وهو السبب لكل ما أعاني!!

لم أستطع النوم في ذلك اليوم، رحت أفكر حتى كاد عقلي ينفجر، هل أطلب الطلاق؟! هل أمنحه فرصة أخرى؟! هل أبدأ معه من جديد؟! هل ألجأ إلى سلمى أو سهيلة؟!

ثم استقر عقلي بالنهاية إلى الإبقاء على صورة الحياة الزوجية الرثة، واللجوء إلى نبعه الذي تكدر.. وفي اليوم التالي ذهبت إلى طبيب،

لأكتشف أن زوجي لم يذهب منذ شهرين أو يزيد، وأنه أوجد لنفسه علاجا من نوع آخر، انتهج سبيله في زلة لا تغتفر...

وكلما مرت الأيام، كلما جلبت معها أحزانا جديدة، وطعنات دامية، وبلايا لا تزول، ولا يرجى زوالها. وبموت كل أمل بالتحمل في خضم هذه المأساة، قررت الطلاق. طلبت إليه أن يفك أسري، ويخلي سبيلي بهدوء، ويغني الله كلا من سعته، ويذهب في الوجهة التي ارتضاها لنفسه.. لكنه رفض وبكل تأكيد، يخشى افتضاح أمره، وهتك أستار سرائره.. بالرغم من أنني ساومته كثيرا وقطعت له العهود والمواثيق بذلك، لكنه رفض أيضا، ومن هنا لجأت إلى الخلع...

دفعت عامين من رصيد عمري لبنك الحيرة الموجعة، والألم الدامي. خضت معركتي كجندي أعزل، فقد ذخيرته على غير طائل، تخلى عني كل أحد.. لم يكن برفقتي سوى ألمي وهشيم أحزاني، وشعث روحي المبعثرة بين جدد الألم..

لم تكن بصحبتي سهيلة التي لا يروقها ما يحدث تحت مسمى" المرأة ليس لها سوى بيت زوجها"، ولا سلمى التي هاجرت للخارج برفقة زوجها لبناء مستقبل أولادهما. ولا أمي التي كانت أمنيتها الأخيرة جرجا جديدا يضاف إلى قائمتي. ولا حتى طارق الذي طالما صد عني الهجمات المفاجئة، وأدمن الذود عن حياتي بكل استبسال!!

كنت وحدي تماما، في ذروة سنام حاجتي وافتقاري إلى أحدهم. وبعد جهد جهيد أنهيت المعركة التي عز نصرها كثيرا، وطال انتظار خاتمتها، لتسدل الستار على فصل آخر للألم بداخلي ...

عدت إلى بيت أبي، الذي عايشت فيه كل آلامي السابقة، ليتني عدته بذات النفس التي قد خرجتْ، ولكن هيهات، فالعناء في الأسر أفظع وأدهى منه في الحرية!

شعرت أن كل مخاوفي تطاردني، وتستل سيفها نحوي. كل ألم راح يلوح بسكينه المسموم في وجهي. كل خذلان يشهر رمحه أمام ناظري. كل كسر يعتصر فؤادي الصغير، الذي لم يعد يقوى على الدفاع أو التصدي!!

ذهبت إلى الطبيب الذي اعرفه تماما، كما أعرف الآلام التي تغزوني، ولم أعد احتمل المزيد منها. ذهبت طواعية إلى سجن اخترته بكامل قواي العقلية، كنت أراه ملاذي الوحيد..

أكتب إليكم الآن من داخل غرفة بيضاء موحشة. فضاء واسع، لا يقطنه سوى شبح ذكرياتي الدامية، يتوسطه سرير دقيق، تقبع عليه ذات النفس المهلهلة المؤرقة الذابلة..

أكتب إليكم ولا أعلم ما إذا كان سيقرأ أحدهم ما خطت يمناي، لكنني مرتاحة إلى كتابته على أية حال، والإفضاء بما في نفسي إليكم. ربما وجدت بكم من يؤازرني ولو حتى بتلاقي مخيلته وعقله مع ما خضتُه من معارك.. أو دعوات صادقة بتفريج كربتي..

أو ربما لن يقرأه أحد، لكنه سيظل شاهدا على وقيعة قلبي الذي كنت السبب الأول في عناءه، ودرب معاناته التي لا تزول...

★★★

٧-أَيْنَ المَفَرّ

أعلم أننا قد تخطينا زمن الجاهلية منذ زمن بعيد. لكن البعض مازال يحيا بين أطلالها بتفكيره، ويعتنق الكثير من معتقداتها الفانية بمقاديره، ليس كمن عبد الأصنام، وعاقر الخمر، وأدمن المقامرة، بل كان عقله صنما أصما في حد ذاته. العقل الذي يزين صاحبه أو يرديه هلاكا وخيبة وندم.

تلك هي الأصنام الفكرية، والمعتقدات الجائرة التي كانت ومازالت تحكم عقول الكثيرين حتى الآن، وآسف من داخلي حقا حين أُذْبحُ يوميا بسيف الاعتقاد الجائر الذي يرى في إنجاب

البنات أعظم داهية قد يصاب بها أحدهم في حياته....

نعم وبكل أسف، لقد ولدت لأب يحيا ما بين" أيمسكه على هون أم يدسه في التراب"، ولدت لأب ظل وجهه مسودا.. لم يمر على قلبه يوما" وإذا الموءودة سئلت"

دائما ما كان يردد من ابتلي من البنات، لكنه لا يذكر ختام الحديث أبدا، يتوقف عند قوله ابتلي، ويتعامل معها على أنها أفظع بلاء، ينظر نحونا مرددا: أنتم بلاء، أعظم مصيبة قد أصابتني بعد الزواج بوالدتكم!

كثيرا ما كنت أشعر بأن ذلك "الوأد" قد يكون أيسر ألما من الوأد كل ثانية على ظهر هذه الأرض. الموت لمرة واحدة أقل عذابا من

الموت في كل مرة أنظر فيها بوجه أبي. مفارقة الحياة أقل معاناة من موت في ثوب حياة مهترئة تعيسة...

بدأت رحلتي في المعاناة يوم ولادتي، بعد أن خرجت الطبيبة تزف بشرى ولادتي بخير لأبي ووالدته، فلم يتقبل حقيقة الأمر، كأن الحقيقة كانت مؤلمة كثيرا بالنسبة إليه. إلى حد قد بلغ عدم تصديقها أو استيعابها حتى، كأن موتي وعدم سلامتي في ذلك اليوم كان أقل ألما بالنسبة إليه، خرج أبي من المشفى، ولم يرغب في تسجيلي باسمه، جاهدت أمي كثيرا معه حتى تقنعه بذلك، ويتقبل في نهاية الأمر أنه قد رزق بفتاة.

اللعنة التي حلت عليه ولم يستطع التخلص منها على حد قوله عدة مرات...

يحضرني كثيرا كم المرات التي استيقظت على بكاء أمي ونحيبها ليلا،

لم تجرم بما يستحق الندم، ولم تقترف أي ذنب، سوى خطيئة واحدة لا يمكن أن تغتفر في نظر مجتمع بائس لم يتجاوز أعتاب الجاهلية الأولى...

أحيانا شعرت أنني مريضة نوعا ما، لأنني منبوذة بين أفراد عائلة أبي، ورحت أفكر بداخلي ربما أنني مصابة بمرضٍ معد، أو علة لا تزول.. هل سأموت عند مرحلة ما من هذا المرض؟، وإذا كان الأمر بهذا السوء فلا لوم

عليهم إذا؛ فالجميع يسعى لإنقاذ حياته، والمحافظة عليها..

لكنني كبرت لأعرف أنني لم أصب بعلة قط. إنها لعنة الأنوثة، نوع من الأسقام يظل مرافقا طوال الحياة، إنها لعنة لا تزول بالنسبة لمجتمع مريض بسرطان الذكورة المقيت، يرتوي من ماءه الآسن الكدر...

مجتمع يحكم عليك بالوفاة قبل أن تتم ولادتك حتى، مجتمع ترسخ بداخله" إنها شجرة خبيثة ما لها من قرار"

الولد سر أبيه، وسنده، يحمل اسمه، لكن الفتاة ستتزوج وتلتحق ببيت زوجها يوما ما، إلا بلا فائدة تذكر، وهذا في اعتقاد من لا يعدها ضررا في حد ذاتها...

ومرت الأيام، وحان أوان التحاقي بمدرسة ما، وبالرغم من كوني ابنة الست أعوام، إلا أنني كنت على وعي كافٍ، لأرى سچين أبي الملتهبة تلفح أمي كلما ذكرت الأمر أمامه، أو عَرّضت بالأمر .. حتى استوى الأمر على ذهابي للمدرسة مقابل ألا يدفع أبي جنيها واحدا على دراستي.. إنه لن يجني منها أي ربح، فلم يغامر في أمواج الخسارة بماله النفيس، الذي يثمن لوريثه وحامي شرفه وجنابه..

وبالفعل ذهبت للدراسة، وكانت كل شغفي.. أمضيت جل أوقاتي أردد الحروف، وأتغنى بالأرقام. أعمل كمعلمة لطلاب في مخيلتي، أصبحت عالمي الخاص الذي كان يضخ أملا

بين عروقي، وبريقا بعيني، حتى أنهيت الصف الثالث، عندها قد بدأت مأساة جديدة بين جدران محبسنا الصغير.. لقد ولدت فتاة أخرى لأبي، وكانت الصدمة في تلك المرة أشد وقعا من التي سبقتها، على الرغم من أنني قرأت يوما أن الصدمات يقل تأثيرها إذا تكررت لكن هول الفاجعة كان أقسى في تلك المرة على كلا والداي، فأبي أصيب بحالة اكتئاب شديدة، طرد على إثرها أمي من المنزل بعد أن سولت له نفسه أن يضربها.. وبالطبع غادرت معها برفقة " الصغيرة رغد"

التي لم تكن طفلة في الواقع، بل كانت ملاكا في صورة بشرية محببة، لم أنظر لنفسي يوما بذات العين التي أبصرتها بها، ربما لأنني لم أحضر

مأساتي بوعي كامل، واختلست النظر عنها بين مذاكرات أمي.. أو ربما كان أبي يسير وفق القاعدة التي تقول" أن الخطأ حين يكرر لا يغتفر" لكنني أرى إجحافا كبيرا في هذه القاعدة، فالخطأ الذي يكرر لا يعد خطأ من الأساس.. ثم من تلك التي ترغب بتدمير حياتها وتسولها المودة من الخلق!

حين يأتينا الأذى ممن كنا نعتقدهم ملجأ وملاذا نتألم مرتين، مرة للثقة التي اندثرت بقلوبنا، ومرة لأنفسنا التي هانت على من نحب!

وبعد أن مضى ما يقارب العام، أتى بعض المصلحون لنعود أدراجنا إلى سجن أبي ومعتقله الخاص، وبالفعل استجابت أمي لرغبتهم وعدنا

برفقة من حضر على الرغم من عدم قدوم أبي معهم ذلك اليوم..

عندما اقتربت من المنزل انتابني شعور مختلط، يحمل الضيق والحزن والأسى والبغض. ولأول مرة أتذوق البغض يومذاك، حين استقبلنا والدي بذات الغضب الذي غادرناه به، ورغم ذلك أسرعت نحوه بابتسامة كأنني كنت أحمل قدرا من الاشتياق نحو ذلك الشخص الذي لم تظهر بوارد ود منه تجاهي من قبل، فرمقني بنظرة اشمئزاز وربت على كتفي على استحياء، كمن ينفض الغبار عنه، كأنه يخشى أن تطاله لعنتي، أو تتنقل إليه عدوى مرضي. لكنني على كل حال، كنت أوفر حظا من الصغيرة رغد التي غادرت قبل أن تدرك حقيقة خروجها للدنيا،

وعادت تخطو أولى خطواتها به، كضيف غير مرحب بوجوده واستقباله. لم يبال بها مطلقا، ولا لابتسامتها الصغيرة التي تسلب العقول، اكتفي بقوله: أهلا، بامتعاض لأمي، ثم غادر المنزل..

عندها أصبحت أراه كسيف للظلم قد سلط على هذه النبتة الصغيرة، التي لم يلتفت يوما إلى رعايتها أو الاهتمام بها، ومع تقدم الوقت، أصبح ينأى عن مناداة أمي باسمها ويكتفي بقوله "يا شايلة الهم للمات" لجريمتها الشنعاء على حد اعتقاده بإنجاب فتاتين على التوالي...

على الرغم من ذلك كنت سعيدة لعودتي للدراسة التي فقدتُ إثر ذهابي برفقة والدتي إلى بيت جدتي، وهنا بدأت أرسم أحلاما وردية لمستقبل

مزهر، لم أكن أعلم أنني لن أناله حتى بأحلامي.
رحت ألقب نفسي بالدكتورة" نسمة رمضان" أخصائي الأطفال وحديثي الولادة. وكنت أرى في الطفولة عالما خاليا من الأحزان والآلام، لذا اخترت أن تقتصر علاقتي مع هذا العالم به، واختزل تعاملي معه في محيط البراءة التي لم تدنس بالظلم والخذلان.

وسرعان ما توالت الأيام، وكبرت رغد، وأصبحت ترافقني للمدرسة، التي أخذتنا نحو شاطئ أحلام لن تطأه أقدامنا يوما، ولن تسير قافلتنا نحوه، كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف. لم نقدر على شيء من أمرنا، حين

قرر والدي أننا سنعمل بعد ساعات الدراسة، وإلا لن نفكر في الأمر بعدها حتى..

وبالفعل استسلم الجميع لمادة الزيف الجديدة التي أصدرها أبي في قانونه، فعملت إحدانا بمتجر مجاور، والأخرى عن عملت بمصنع في مدينة قريبة، وظلت هكذا الحال ما بين دراسة بأول النهار وعمل بآخره، والذي كان يمتد أحيانا إلى الليل، جهد جهيد، كنت أتم يومي بشق الأنفس، لا أكاد أشعر بنفسي لشدة إجهادي، ومواصلة الليل بالنهار..

ومضت بنا الأيام لترسو على مرفأ جديد لليأس يختلف إلى حد كبير عن العناء السابق، لقد وصل قطار المأساة إلى محطته الأخيرة، وبات الآن على مسافريه الترجل نحو وجهة غير

معروفة إلى الآن.. لقد بلغ السيل الزبى، فقد ولد لأبي فتاة ثالثة، لكنه أنكر نسبتها إليه هذه المرة تماما، وطلق أمي بلا رجعة، وطردنا من المنزل نهائيا!!

هنا بدأت معركتنا الجديدة، إثبات نسب الوليدة، وتأمين منزل، وسبل عيشٍ لأربعة أرواح، ومواجهة مجتمع بأسره.. ثم أخيرا استكمال دراستنا..

لم تكن البداية يسيرة، ما بين مشقة الانتقال من المدرسة، والاستقرار ببلدة غريبة، ونظرة سفاحي الأخلاق والمبادئ، وبعد عناء شاق لأربعة أشهر يمكن القول أننا استطعنا إحراز تقدم بتلك المعركة الدامية، التي استلت كل شعور بالسعادة منا، وسامتنا سوء العذاب بلهيب

جمارها.. فعلى الرغم من أننا ابتعدنا عن البلدة التي يسكنها أبي، إلا أننا أُرغمنا على زيارته في نهاية كل أسبوع ليُحَصِّل من راتبنا نوعا من الإتاوة التي فرضها علينا.. نعم لم يكن يترك لنا سوى الفتات، أقل ما يقام به رمق الحياة. لم يبد يوما أية شفقة لحالنا وما آلت إليه الأمور، حتى أنه تزوج بأخرى، علها تغسل حوبته، ويكون له منها الوالد.. ولكن الأقدار أضمرت له عقابا من نوع خاص، فالمرأة التي تزوج كانت عقيم!!.

وظل البيت خاويا على عروشه لسنوات، يبكي جدار السعادة الذي انقض فلم يستطع إقامته، كأنه رسم دارس، وأنقاض بناء، كان يضم بين جنباته في يوم ما قد يوصف بأنه أسرة..

تتابعت السنوات من جديد، وحطت بي في محطة الثانوية العامة، السنة التي يشيب لها الولدان في كل بيت بأرجاء المعمورة. لكن ما ألم بنا من أهوال، لا يقوى على مناهضته أي شيء، ظللتُ على سابق عهدي من الذهاب للمدرسة صباحا، والعمل بعدها حتى المساء، لكنني هذه المرة كنت أختلس بعضا من ساعات نومي حتى يتسنى لي الدراسة، ومراجعة دروسي..

كنت أحاول أن أبذل جهدي، وأسعى على قدر استطاعتي، وقد لاح بخاطري أمنيتي الصغيرة التي خبأتها بين طيات الزمن، ورغبتي بأن أصبح طبيبة، كما أنني اعتقدت أنه سبيل نجاتي الأول والأخير، فربما اعترف بنا والدي،

وتحسنت أوضاعنا المادية، وعصمت أختاي من العمل والتعب.. لم أدخر وسعا لتحقيق أمنيتي التي كانت بمثابة معركتي الأولى والأخيرة في الحياة..

وبالفعل، لم يقابل الله جهودي بمثلها فقط، بل ضاعفها بفضله وإحسانه الكريم، وبدلا من حلمي بالالتحاق بكلية الطب، كللت جهودي بتتويجي للحصول على المركز الأول على مستوى الجمهورية...كان فضل الله علي مذهلا لدرجة لم أحلم بها حتى، التفت نحو الماضي الأليم للحظات ورددت بداخلي "ما رأيت شرا قط".

لقد برئت كل أوجاعي وأسقامي، لوهلة كأن كل ما حدث لم يحدث أبدا، حلقت في سماء الفرح والسعادة التي لم أكن أعرف لهما سبيلا من قبل، لا سيما وقد حضرت الصحافة لتقيم معي حوارا حول أسباب تفوقي ونجاحي..

لكن مع بداية المقابلة انعقد لساني، وكأنني سقطت من أعلى الهاوية نحو أعماق الجحيم، لقد قتلني ذلك الصحفي برمية مسددة دون أن يدري، حين سألني: يبدو أن والدك متوفي، ترى ما سيكون شعوره لو كان معنا؟؟

حاولت تجميع بعض الكلمات لأجيب عن سؤاله، لكن كل ألفاظ التعبير قد خانتني عندها، وزل لساني، ليصدع بالحقيقة المؤلمة" لا

أعرف، ربما سيجحد الأمر كما جحد وجودي

من قبل"..

لا أعرف كيف أمكنني قول ذلك ولا ما حدث بعدها، لكنني بقيت بمفردي مدة طويلة أبكي كل لحظة عناء سكتُ عنها من قبل، أبكي بَطر حقي وحق أخوتي، أبكي نفسي التي أعتصرها الألم، أبكي لرغد التي ولدت قرينة للذل والإهانة، أبكي لوالدتي ولضعفها وقلة حيلتها، أبكي لياسمين التي فقدت حقها في الانتساب إلى أبيها، وشردت على طرقات الذل كلقيطة منبوذة، أبكي إجحاف مجتمعي قبل كل شيء، الذي نبذ من الجاهلية ما كره واستثنى منها ما طابت إليه نفسه...بكيت حد الارتواء، حتى غسلت ندوب

قلبي بماء دمعي، حتى جفت المآقي، حتى اكتفيت واكتفى مني البكاء..

بعدها وقررت مواجهة أبي، قررت أن أنزع الغشاوة عن عينه، وأجلو الران الذي غشي قلبه، قررت أخيرا أن اقتحم صرح كبريائه، وأهدم قلعة جبروته وسطوته وبطشه، وبالفعل غادرت المنزل نحو بيته لأصطدم بآخر توقعاتي، إنه يبدو كزفاف من بعيد، ومن العريس المنشود، إنه أبي!!

كانت تلك محاولته الثالثة، في سجل بؤسه للحصول على الذكور، اكتفيت بإشارة من بعيد على استحياء ثم غادرت المكان من فوري، وبماذا سيفيد العتاب لمن ليس له قلب! إن طلب الشيء من فاقده يعد ضربا من العبث والجنون!

تخطيت تلك الأيام التي طال مرورها على قلبي، والتحقت بكلية الطب بالفعل، كنت أرسم لوحة سعادتي بهدوء وتروي، أخشى أن تختلط علي الألوان فيتسلل إلى لوحتي الأسود من جديد.. حتى فجعني القدر بما لم أحسب له من قبل، ولم أفكر فيه مطلقا، إنه هولٌ من نوع خاص، قاسٍ إلى حد يجعلك تتمنى الموت بكل ثانية تمر عليك في هذه الحياة. لقد كان أقسى اختبار مقدر لي في هذه الدنيا.. لقد توفيت " الياسمين" توفيت لتترك شذاها يؤرقني بذاكرها في كل ليلة.. لتترك الابتسامة تنأى عن بيتنا، ويسكنه الألم وبحق.. عندها أدركت أن كل جرح عهدناه وتجرعنا ألمه بالماضي لم يكن جرحا بمعناه الحقيقي.. لقد كانت صدعا شقق

قلبي، فلم أستطع مداواته حتى الآن.. والألم الذي خلفته لم تكتشف له العقاقير بعد.. يصعب علي تشخيصه إلى هذه اللحظة، كما أعجز عن وصفه حتى!

انطفأ كل بريق للأمل كان يسكن بيننا، وسرمد الحزن على كل زاوية في المنزل، لم أكن أدرك أن الياسمين كانت قلب المنزل النابض، وبريق الأمل بعينه، رمق روحه، وترياق سعادته، ووميض فرحه الذي سلبه منا أبي بجوره منقطع النظير.. لقد توفيت في طريقا لتوصيل الإتاوة الأسبوعية التي ندفعها لأبي، ومما يكويني ويذيبني كمدا أنه قد أخذ تعويضا عن الحادث بكل تبجح وعدم مبالاة، لقد تمكنت القسوة منه حتى أن الوحش يعد ملاكا مقارنة به!

لقد قتلها وشرب دمائها بأخذ ديتها بكل دم بارد..

تخرجت بعدها بفترة، وتقدم إلى خطبتي زميل لي، لكن أبي تدخل وللمرة الأولى فيما يعنيني قائلا: إذا أمكنك أن تدفع ثمنها فلا أمانع أن تأخذها، ثم اتبع ذلك بضحكة ساخرة ولك أن تأخذ الأخرى هدية أيضا.. وراح يثقل كاهله بمطالبه التي ما أنزل الله بها من سلطان، فلم يجد المسكين بدا في الفرار...كان هذا أول اعتراف بي من أبي، أعلم أنه لم يعترف بي كابنة له، قطعة منه، لكن كصفقة رابحة له.. الصفقة التي ستجلب له أموالا طائلة على فرض أنني سأعمل في المتاجرة بأوجاع الخلق كما يفعل البعض، لكن المأساة لم تنتهي عند هذه الحد، بل امتدت يد الظلم لتطال رغد هي

الأخرى، تخرجت لتعمل في مكتب هندسي، يحصد أبي أجرها ولا يدع لها حتى النقير...

فأين المفر؟!

أين هو المفر من مستنقع الأحزان؟! وكيف السبيل إلى النجاة؟

أين المفر من لظى معاناتي ومأساتي؟!

أين المفر من قيد معتقدات هدمت صرح سعادتي وبقائي؟

أين المفر من آلامي وأسقامي التي تطاردني كأشباح الظلام؟!

أين المفر من علة ولدت بها في جور مجتمع ظالم عاتي!

أين المفر وأنا طبيبة عجزت عن فهم علتي، وسبب معاناتي، وكيفية مداواتي؟!

أنا جرح الزمان الذي لم يبرأ ولن يبرأ، أنا الموءودة على ظهر الأرض.. أنا الابتسامة المسلوبة، والعبرات المكتومة، والآلام المسمومة...

أنا خطيئة مجتمع كامل، لم يعرف يوما" بأي ذنب قتلت"..

★★★

8-فَصَبْرٌ جَمِيل

كنت صغيرة جدا حينها لأدرك ما قد حدث لي، لأدرك أنني كنت بضاعة مزجاة، لأدرك أنني قد سلبت أبسط حقوقي على مرأى ومسمع من العالمين، ولم يبال لأمري أحد...

بالمناسبة أنا أمنية، الأمنية الوحيدة التي كتب لها أن تعلق في كهف الأمنيات الحزينة، الغير محققة. الأمنية الصغيرة التي عجزت عن مداوتها أمي، ومساندتها أخي، ونصرتها مجتمع بأكمله... لكن هناك يقين بداخلي أن نجاتي ستصير عجبا لبني العالمين...

كنت بالصف الثالث في المرحلة المتوسطة، حين قررت أمي وجمعها الغفير من أخوتي تزويجي في أحد أكثر الليالي بؤسا بحياتي..

كانت الصدمة قد فاقت كل توقعاتي، لم أدرِ بأي عذر أتعلل وما هي حجتي لتفادي الحادث الأكثر ألما بحياتي. فبعد وفاة والدي لم يعد هناك ما يستحق البقاء لأجله، لقد كان عصاتي التي أتوكأ عليها، وأذود بها عن قلبي العناء الذي يصيبه، ملاذي الآمن لدى الخطوب المفزعة، وبلسم روحي إذا اشتدت الآلام.. حقا أعجب كثيرا من آلامي في تلك الفترة التي كانت تتمثل في مشاجرة عابرة مع إحدى الزميلات، أو امتحان في مادة لا أحبها كثيرا، أو زيارة عائلية لا أرغب في استقبال ضيوفها.. فهل هذه آلام

حقا...اليوم أيقنت المعنى الحقيقي للآلام، حين يكتب مصيرك بيد أكثر الأشخاص بعدا عن روحك، وما تطمئن وتسكن إليه نفسك. لقد انعقد مجلس حكماء العائلة الموقرة برئاسة أخوتي الثلاث، وأمي القائد الأعلى، وأصدروا فرمانا يفيد تزويجي برجل يزيد عمري بخمسة عشر عاما. نعم، أسمع الآن من يقول إنه عمر آخر، والبعض يرى أنه لا بأس مادام هناك توافق وتفاهم، لكنني أعدمت في مظلمتي شتى الخيارين؛ فلم يملك كمال قدرا من التوافق، ولم يكن بيننا تفاهم في يوم ما. كنت خادمة مطيعة، تلبي الأوامر بحذافيرها بكل هدوء واستسلام، لم أعرف يوما إجابة سوى سمعا وطاعة. لكن إحساني لم يقابل يوما بالإحسان، بل كان في

مقابله كل قسوة وازدراء ونكران للجميل.

تزوجت كمال وهو لا يملك من حطام الدنيا الكثير، كان يصعد سلم الثراء درجة بدرجة، حتى أنه غادرني بعد الزفاف بثلاثة أشهر، في أحوج ما يكون إليه، فبينما كانت زميلاتي تذهبن يوميا للدراسة، كنت استيقظ على طرق والدته الشديد على باب شفتي تردد: ما كل هذا النعاس، ستجلبين الفقر للمنزل، سينقطع رزقنا بسببك، هيا استيقظي لتحضري الفطور، هناك أناس لديهم أشغال، فليس الكل عديم الفائدة مثلك...

وكل يوم كنت استيقظ على ذات الاسطوانة البذيئة عديمة الشعور، فأنزل لبيتها أعمل كخادمة لديها ولدى بنيها وبناتها اللاتي كن في

نفس سني تقريبا، لكن الران الذي كسى قلبها بالكامل لم يسعها يوما أن تنظر إلي بذات العين التي كانت تنظر بها إليهن.. كنت مُسَخّرة كليا، أعمل بدوام كامل، لا يتخلله ولو بعض الراحة، حتى الدقائق التي كنت اختلسها للصلاة، كانت تضيقها ذرعا: أنت، هل تصلين التراويح أم ماذا، هل تمتد صلاتك طوال النهار؟ لا أعلم ما الذي جناه ولدي الحبيب ليبتلى بزوجة مثلك، آه عليك يا ولدي زين الرجال، ليس لك حظ في هذه الدنيا. وكل يوم على نفس الحال من الإهانة والسباب، والهمز واللمز هي وبناتها.

فكرت كثيرا أن أهجر المنزل واذهب إلى والدتي وأخوتي، ولكن هيهات فهم من أهدوني لجلادي بلا ذرة واحدة من الشفقة أو الاحساس،

وكان جل ما يتعللون به: إنك جميلة، ونحن نخاف عليك، ومهما بلغت من التعليم، ليس للمرأة سوى بيت زوجها.. ربما كنت لأصدقهم، لو دام هذا الجمال الذي تشدقوا به، أو كان ذلك بيتا على الأقل. إنه حكم مؤبد بالأسى والآلام الشاقة، إنه كهف لليأس للكسر للعجز، إنه جُب كجب يوسف، إلا أنه لا تطرقه سيارة أبدا!

وبالفعل قضيت أيامي أعاني وحدي، حتى فقدت احساسي بالأشياء وبريقها، بل وجودها! ومما زاد معاناتي أنني رزقت بفتاة، وهنا قامت قيامة من نوع آخر، فما قد ما مضى لا يساوي معشار ما أعانيه الآن، وكنت أعجب حقا مما تعرني به أم زوجي وهي التي رزقت من البنات ثلاث، وهي في ذاتها أنثى أو كما يبدو..

على كل انقضت فترة سفر زوجي ككابوس مزعج، كنت أؤمل نصرته لدى عودته، ورد اعتباري واعتبار ابنته التي وسمتها جدتها " بمصيبة" ساخرة من اسمها" منة"، وحقيقة لم أرَ في نوائب الدهر مصيبة تعدل هذه المرأة التي كاد الحقد والغضب يذيب داخلها.. أضناني الذهول عند عودة زوجي وقد استقبلته على مدخل البيت، تبكي وتشكو سوء معاملتي، وإساءة أدبي بحقها. لا أخفيكم سرا انعقد لساني عن التفسير وقتها، كدت أصدقها لو لم أكن خصيمها المدعى عليه زورا وبهتانا، حتى أن زوجي مكث لديها بعد عودته لمدة أسبوع كامل كنوع من التأديب لي، وإرضاء لوالدته.

ولأصدقكم القول لم أتعجب كثيرا؛ فالأب الذي

يقسو على ابنته في أول لقاء لهما، ويقابلها بهذا الفتور البارد، لا يتوقع منه اشفاقا أو تقديرا لشريكته! ...

مرت الأيام ثقالا على قلبي، حتى أصبحت صخرا أصما، لم أعد اتضرر مطلقا لم يفعلون، كنت أتدثر في كل ليلة "بيوسف"، تلك الآيات التي كنت أشعر بها تربت على قلبي بهدوء، وحنان، كانت بمثابة دواء لكل داء، السباب، التطاول، الكسر، والفقد، وكل ما جال ببالكم وما لم يَجل، كأنها وصفة سرية لمداواة علل الروح والنفس والقلب، وكل ما قد يتعثر أو يبتلى به المرء، إنها الدواء الذي لم يفشل أبدا في مداواة ألمي، كأن قلبي يغسل في كل مرة كنت أقرأها فيها. حتى حفظتها عن ظهر قلب، وأصبحت

أهمس بها لنفسي طوال فترة دوامي" إنما أشكوا بثي وحزني إلى الله وأعلم من الله ما تعلمون" نعم أعلم من الله ما لا تعلمون، أعلم أن كل ألم مؤقت ما دام في ثنايا الدنيا المؤقتة، وكل هذا سينقضي يوما ما، والله وحده المستعان عليكم، وعلى ما تصفون، وما تفعلون، الله حسبي وناصري وكفى به نعم النصير...

وبعد فترة زفتْ إلى طبيبتي بشرى حملي للمرة الثانية، وهنا فتحت قذائف الحمم على مصراعيها، يا أم البنات، وأنت أرض مالح لا تنبت الأولاد قط، وكل هذه الويلات التي لم تعد تجذب اهتمامي، لم يكن هناك أسوأ من إصابتي بالسكري، وتساقط بعض أسناني، وتناثر بعض الخصلات البيضاء بشعري، وذهاب كل حُسن

قد عهدته بنفسي. أنا لم أعد أمنية، بل أنا أنشودة الفناء، وأهزوجة الألم، وقصيدة اليأس والأسى، لكنني كنت بالرغم من كل ذلك أردد" فصبر جميل" والله المستعان على كل من ظلمني وأودى بي، على كل ألم عانيت وعايشت، على كل الليالي التي أمضيتها أبكي في صمت، تتساقط العبرات كشلال حارق على وجنتاي في صمت تام، كم كنت أتمنى أن أحظى بفرصة في الصراخ، لكنني حتى التألم قد سلبت حقي فيه!.

وبمجرد أن وضعت ابنتي الثانية، حتى أبرم زوجي خطة أمه بالزواج من أخرى، لم أمانع في الواقع، كنت انتظر الدائرة لتدور عليهم، وتقتص لربيع عمري الذي أفنيته على من لا يستحق، وبالفعل تزوج من ابنة خالته " علا"

الحصان الرزان التي تتغنى بها أمه على الدوام.

ولا أريد أن أقص عليكم قدر المأساة بعدها، لكني على يقين تام بأن أقسى ما توقعتم لا يناهض ما قد حدث.

ثم شاءت الأقدار ووضعت علا بنتا ثالثة لزوجي، أصيبت حماتي بجلطة إثر إخبارها بالبشارة، فقدت النطق وقضت ما بقي من أعوامها على كرسي متحرك، ثم أضمرت لها العدالة الإلهية أمرا آخر، لقد توفيت الفتاة بعد ولادتها بفترة، وطلبت علا الطلاق لأنها لم تجد توافق بينها وبين زوجها المتعجرف، إنه لا يطاق ولا يحتمل، كهذا وصفته في الجلسة العرفية أمام أعيان بلدتنا الكرام، وبالفعل طلقها ودفع كل ما يملك كمؤخر لها، وثمنا لقائمة

المنقولات، وغير ذلك مما كان يثمن وهو على يقين ببقاء زيجة الهنا والسعادة..

ثم لم يبقَ أحد! نعم الوالدة أصبحت حملا ثقيلا على عاتقه، والزوجة لم تبقِ قطرة من ماء وجه حتى أراقت ودنست هيبته بالأرجاء، كما نسيت أن أخبركم أن مخازن تجارته قد احترقت، وعاد كأول يوم التقيته فيه، يعمل في بقالة مجاورة، لكنني على الرغم من كل ذلك كنت كما أنا، السامعة المطيعة، التي مرت بأحلك الظروف، وكنت على استعداد أن أخطو فوق الجمر ثانية حتى لا أفرق بين بناتي ووالدهم، وأهدم صرح أمانهم الوحيد، فحتى وإن كان متصدع إلا أنه يبقى منزلهم ومأواهم الوحيد بهذه الدنيا...

"منة ومرام" كانتا شغلي الشاغل في الحياة، كل أملي، وأمنياتي المبعثرة في ريح معانتي، كل عدتي وعتادي وذخيرتي، وحصوني وقلاعي، كانتا شعاعي المشرق الوحيد، وما يستحق أن أعيش لأجله بحق..

ومع تقدم الوقت، توارى ستار الزيف عن عين زوجي شيئا فشيئا، وأصبح بإمكانه أن يبصر نور الحقيقة، ومظلمتي التي عشتها خلف جدران زواجه والارتباط به. بدأ بحسن إلى على استحياء، كأن طبيعة الحال هي الإساءة، ولم يغير ذلك شيئا بداخلي، كنت كما أنا، في الحقيقة لم يعد يمثل لي قدرا من الأهمية تجعلني أتألم لما يفعل أو لم يفعل. كنت أعيش صورة زائفة لأسرة حتى لا أؤرق ابنتاي فحسب.

أما عن حماتي فقد سامحتها، ليس لأنني أشفقت على حالها وقد كنت الشخص الوحيد القائم على خدمتها وكفى بهذا واعظا. لكن لأنني أحب أن يغفر الله لي، كما كنت على أمل بعاقبة صبري، فالأزمات مهما طالت واشتدت، فلابد من يومٍ لزوالها.

وبالفعل قد أذن الله بنجاحي في الاختبار القاسي، دخلت ليلة وفاة حماتي، فوجدت كمال يبكي بشدة، كما لو كان لم يعرف البكاء من قبل. أذهلني ما رأيت، لم اتوقع ما يحدث مطلقا، كان هذا آخر شيء أتوقع رؤيته في حياتي، تسمرت أقدامي بالأرض، وتجمدت أجزائي كلها، كأني منحوتة حجرية في مدخل الغرفة، أراقب بعين لا ترف ما يفعل زوجي، وسط حالة شديدة من

الدهشة والذهول، حتى أنهى صلاته ملتفتا نحوي، فتسارعت أنفاسي محاولة مغادرة المكان، إلا أنه هتف بي" سامحيني أمنية" فخفق قلبي بشدة كأنما قنبلة بدأت عدها العكسي للتو، لم أستطع أن أنبس ببنت شفة، فعاودني : أعلم أن ما أطلبه ليس باليسير، ولكن ليكن ابنتاي شفاعتي لديك، لا أريد أن أموت وأنا أحمل مظلمتك كما فعلت أمي. عندها أجهشت في البكاء، لم أعِ شيئا مما حدث بعدها، كان جميل عوض الله ما يعجز عن استيعابه، لقد نلت ذاتي، وكرامتي، وحريتي، وتقديري بتلك الكلمات الوجيزة.

كان سندي أعظم من أن يضام أو يترك مظلمتي وشكايتي، وللمرة الأولى أصبحت أؤمن بأني

أمنية حقا، أمنية الصبر الذي عزت معاركه، وعظمت جائزته، الصبر هو المعركة الوحيدة التي تخرج منها على يقين تام بالنصر، تلك الدعوات التي ترسل إلى بريد لا يضل وجهته أبدا، البريد الذي لا يعرف العطلات أو فترات الاستراحة؛ فالباب مفتوح أمام الجميع في أي وقت شاء..

مهما اشتد البأس فانتظر الفرج؛ واعلم أن أحلك الظلمات هي التي يعقبها بزوغ الفجر، ثم إياك أن تنسى بأن الصبر وإن كان مرٌ مذاقته، إلا أن عواقبه أحلى من العسل!.

★★★

٩-أجر المحسنين

إنها الأقدار.. تمنحنا قدر ما تأخذ، فقط المزيد من الصبر والرضا، واليقين بأن كل منا مستوفي رزقه غير منقوص، هو ما يحكم طبيعة الموقف، ويحول كل محنة إلى أجمل المنح!

ولدت يتيمة لوالد لا أتذكر أي لحظة جمعتني به مطلقا، إلا اللحظة التي فارق فيها العالم بأسره. اللحظة التي لقى عندها حتفه بينما يحاول إنقاذي من لظى حريق شب بمنزلنا نتيجة ماسٍ كهربائي..فآثر حياتي على حياته. واليوم أتمنى لو أحظى بحياة ثانية إلى جواره في الجنان..

لطالما تذكرت عبراته التي ذرف خوفا على طفلة صغيرة تكاد تحترق بين ألعابها الصغيرة..استيقظت كثيرا على هول النار تفترسه أمام عيني، المشهد الأكثر فزعا وترويعا في حياتي؛ فكل ما ألم بي بعدها ليس إلا كرماد بيتنا المحترق بعد ما حدث...

تذكرت أمرا، أنا أميمة، ولا أدري لم قد أطلق علي والدي هذا الاسم، فلم أحظ بفرصة لسؤاله، ولم تخبرني أمي بالأمر، ولم أسع لسؤالها حتى، لكنني أحبه، وأعده ذكرى والدي الوحيدة، بجانب صورة شخصية صغيرة، أذوب إذا تأملتها من حين لآخر...

وبالحادث تعرضت أمي لحروق كثيرة، بأجزاء متفرقة في جسدها، تركت على إثرها الكثير من الندوب التي جُعل الزمن عامل مداوتها الوحيد، بينما استقر بالأعماق جرح من نوع آخر، أوقن أنه لم تكتشف له العقاقير حتى الآن!

وتلك هي ندوب القلوب، يمتد تأثيرها لمدى طويل، وفي كثير من الأحوال تعصى على التعافي!

كنت أرى هذا الصدع يشقق وجهها، كلما سألتها عن أبي، كيف كان، وما يحب، وما يكره، حتى كانت أحد الأيام التي أجابت قائلة: كان عطاء الله لي ولك، العطاء الذي عجزت عن استيعابه

طيلة حياتي معه، وازاد الأمر بعد فقدي إياه، ثم انتفضت تواري عبراتها مسرعة..

حينها قررت عدم سؤالها في الأمر أبدا، أدركت أن تكون معنى مصابا بعلة مزمنة، ويأتي أحدهم كل يوم ليذكرك بأنك مريض، فآثرت أن احتفظ بكل تلك التساؤلات إلى لقاء غير معلوم..

ورحلنا في قافلة الحياة، نتلمس الخطى على تراب القدر المحتوم، بنفوس يغشاها الرضا، وتملؤها السكينة، فكل ما جاء من عند الله خير، وكل مصيبة يبتلى بها المرء تهون مادامت في غير الدين...

وبعد سنوات، تخرجت من الجامعة، أردت أن أزيح بعصا من العناء عن كاهل أمي، التي تحملت مشقة السير بمفردها، ولم تدخر في سبيل سعادتي وسعا ولا قوة.. وبالفعل تمت الموافقة على طلبي لألتحق بهيئة التدريس في إحدى المدارس الخاصة، كمعلمة للغة الفرنسية، ورغم أن الأجر كان زهيدا في البداية، إلا أن البركة كانت تصنع المعجزات!

وبعد فترة، تقدم إلى خطبتي زميل لي في المدرسة، رفضت وبشدة، لم يكن يخيل إلي أن أترك أمي مطلقا، ولم أجعل الزواج أحد أهدافي في الحياة.. قصرتها على التدريس ورعاية أمي المريضة، وبعض العمل التطوعي في أوقات الفراغ..لم أجد في حياتي حينها من قد أئتمنه

عليها من بعد أبي، لطالما جاهدت أمي لإقناعي بالعدول عن الأمر، لكنني تشبثت برأي حتى النهاية..النهاية التي أسدلت ستارا جديدا للحزن على قلبي، لقد توفيت أمي، وأذن الله باسترداد الأمانة الثانية، وبعض روحي التي ظلت على الأرض، عندها أدركت معنى اليتم الحقيقي، وذقت مرارته على كبر ووعي وإدراك..كدمعة يتيمة تنتظر أي فرصة لتنهمر، لتبكي، وتصرخ، حتى تغسل داخلها من الأحزان...

بقيت وحدي أتأمل الجدران المحترقة المتآكلة كقلبي تماما، لا يميز بينهما أي شيء، فقلبي المكلوم، كبناء متهتك محترق من الداخل، يبدو من الخارج كبيت ومن داخله كقبر!

مضت فترة كبيرة، تحيا الروح بداخلي مأسورة، تبكي في صمت، وتئن في صمت، وتشكو في صمت.. حتى أصبحت لا أعرف من اللغات غيره، ولا أتقن من التواصل سواه، الصمت هو الإجابة الهاربة عن كل ما لا نستطيع الإجابة عنه، وما لا تمكننا أنفسنا من البوح به...

وبعد ذلك أخبرتني صديقة بأن أحدهم يرغب في الزواج بي، أصابتني الدهشة فعلى حد ما نما إلي معرفتي المتواضعة أن الأشباح لا يمكنها الاهتداء إلى المشاعر، ولا تعرف السعادة، ولا تميز الشقاء، فقط تحيا بصمت، وهذا ما كنت أفعله بإتقان، ألحت علي في مطلبه كثيرا، وفي كل مرة كنت أقابل عرضها بالرفض، حتى سبب الله من اللقاء ما شاء، والتقيته قدرا

بالمشفى إثر تعرضي لحالة إغماء، وجَمّل الله قدري بالزواج منه؛ فقد كان أكثر مثالية من الصورة التي يتمناها الجميع، إلا تلك العقبة التي كانت بمثابة اختبار بالنسبة إلي....

كانت أزمة حياتي الوحيدة تكمن في والدة زوجي حسام، الوالدة التي ترى في اختيار ولدها زوجا وفق رغبته، عصيان علني، وخروج عن مقدسات الطاعة الواجبة، وبدلا من أن تحاول تقبل الحق والتعايش مع الحقيقة، كانت تلقي بكل أنواع اللوم على عاتقي، لم تترك أمرا لم تعنفني عليه، ولوما لم تصدره لي، لقد سخرت بكل ما أوتيت من قوة، حتى أنها كانت تسخر من كوني يتيمة!

وتتهمني بأنني نذير شؤم قد سلبت والداي

حياتهما!

وهل يلام المرء على قدره، ومالم يملك من

أمره؟!!

هل يختار ابتلاءه، ويستعذب اختباره؟!

ورغم كل ما نرى ونسمع من رزايا هنا

وهنالك في الآونة الأخيرة، إلا أنها لا تناهض

معشار أم زوجي، فقد كانت اختباري الأشق

على الاطلاق...

اضطررت إلى تحملها، والاستماع إلى إساءتها

بصورة يومية، أثناء ذهابي للعمل، حتى في

أوقات إجازتي لم تكن لتدخر تلك الإهانات ليوم

آخر، بل كانت تصعد إلى منزلي وتوجهها على

مرأى ومسمع من زوجي، الذي لم يقو على

مجابهتها طويلا؛ فمع الوقت أصبحت تطاله هو الآخر، وضاق بها ذرعا، حتى بلغ الأمر بالنهاية إلى إصابته بمرض مزمن.

أصبحنا نجتنب لقاءها ونتجاهل الكثير من كلماتها، حتى باغتتنا كابوس من نوع آخر، لقد تزوج الأخ الأصغر لزوجي، بعروس من اختيار الوالدة، وفق مقاديرها ومعاييرها الكاملة-على حد اعتقادها-...

لطالما عقدت بيننا مقارنات كان العامل الأول فيها هو الإجحاف والظلم، فمهما أحسنت إليها كانت تعده إساءة، وتأوله على غير وجهه، وتلبسه غير ثوبه، وتعلل للأخرى مهما فعلت، وكل ما فعلت هو الصواب، ولا صواب في غيرها فعلها أبدا!!

حينها راودنا التفكير في بناء بيت جديد، والهروب من سجن تلك المعاناة؛ فزوجي المريض لم تعد حالته تسعه تحمل المزيد من الآلام، وتقدمت حالته المرضية كثيرا، لا سيما وقد رزقت الجارة بتوأم، وأصبحت الحماة تنحر قلبي في كل حين، وتعيرني بتأخر رزقي في الأولاد، وتعاتب زوجي بأن هذا هو جزاء عصيان أمرها...

وبالفعل عقدنا العزم على بناء منزل بعيد عن كل تلك الإساءات، فحتى لو كان صغيرا، فاتساع الرضا والقناعة قادر على أن يحوي الدنيا بأكملها..

وحرصا منا على سرعة الانتقال، اقترضنا مبلغا كبيرا من بعض المحسنين الذي لم يتردد

في مساعدتنا عندما علم بحجم تلك المأساة التي نخوضها في صمت تام...

ثم كانت بعض تلك اللطائف التي يهبها الله من يشاء من عباده، لقد اكتشفت أنني أحمل بين أحشائي روحا أخرى، وومضة من السعادة تسري الكثير من الألم الذي خيم على زواجنا منذ بدايته...

لم يكن العالم بأسره ليحمل قدر السعادة التي نعمنا في تلك الأيام، كنت أردد بداخلي، لقد مضى كل شيء، وانقضت كل مشكلاتي، سيكون لنا بيت جديد، وروح جديدة تغسل عن قلوبنا أدران الماضي، وتسلي عنها آلام الحاضر، وترفع عنها أحزان المستقبل..

ولكن عندما منحنا الله سببا للسعادة والحياة، أذن باختبارنا بامتحان جديد، من نوع منفرد، فقد كانت الصدمة هذه المرة، تصعب على الاستيعاب، ثقيلة ككل أيامي من بعدها، مباغتة كطير سلب جناحيه في جو السماء...

لطالما كنت أبغض صوت سيارة الاسعاف، فهو الصوت الذي كان يظلل كل مأساة في حياتي. موت أبي بين النيران.. النوبة القلبية التي أهلكت أمي، واليوم قد جاءت لتسرمد على حياتي بأكملها..

أكتب إليكم الآن ولست في وعي كامل فقد انقطع عاملي وتوقف بالكامل عند تلك اللحظات، وكأن الروح تنتزع مني انتزاعا

بطيئا، فأموت موتات صغيرة، في احتضار لا ينتهي أبدا...

لم يستطع المسعفون أن يدركوا زوجي في الوقت المناسب، فقد قضت إرادته سبحانه بانقضاء معاناته، وبداية معاناتي الحقة، واختباري من جديد على شاطئ اليتم المقفر، ليس كطفلة هذه المرة، ولكن كأم وأب لطفلة تحسبها إحدى نفحات الفردوس، يكفيني ابتسامة واحدة، لأشعر أنني لست من سكان الأرض مطلقا...

ولكنها الأيام التي تمر لتزيدنا قوة أو ضعفا، وتمنحنا أملا، وتسلب منا أضعافه، تلقننا دروسا لم نكن لنستوعبها مطلقا سوى بتلك الصور المؤلمة...

فبعد وفاة زوجي طالب صاحب الدين بنقوده، وأمهلني كثيرا، لكنني لم أقدر على مزاولة عملي في تلك الأثناء لتفرغي لرعاية الصغيرة، ولم أكن لأقوى على تركها برفقة أحدهم، فبعد وفاة زوجي أصبحت لا أملك من العالمين سواها، هي قوتي وملاذي، وسكني ومأمني وحصني الوحيد في وجه الخطوب المحدقة..

اعتذرت منه كثيرا، ووقعت عقدا جديدا باسمي، واتفقت على تحمل الدين بمفردي، وكنت في حيرة ما بين الدين والصغيرة التي تحتاج هي الأخرى إلى النفقات، وعندها أشارت علي بعض الزميلات بإعطاء دروس تقوية في اللغة الفرنسية، في الواقع راقتني الفكرة كثيرا؛ لن أضطر إلى مغادرة المنزل، كما أنني سأتمكن

من قضاء ديني، وبالفعل بدأت الأمر بمجموعات صغيرة، ومع تقدمي وازدياد خبرتي زادت الأعداد وأتم الله علي أمري وقضيت ديني، وأخذت أفكر في مغادرة البيت والانتقال إلى منزلنا الجديد الذي لم يكن مهيأ بالكامل، لكنه وعلى كل حال أفضل بكثير من هذا السجن الكبير...

ترددت في الأمر لفترة، لكن ما حدث عندها حدا بي نحو ترك المنزل بأثاثه حتى دون التفات إلى رجعة أبدا؛ فقد اكتشفت سلفتي _ مصادفة_ بزواج زوجها، وجاءت تتهمني بأنني غريمتها، وهل يعقل؟!

لقد دفنت قلبي إلى جوار زوجي، وأغلقت تلك المنطقة المخصصة للحب، بعد أن وارايته الثرى

مباشرة، لقد كان زواجنا على قصر مدته، يساوي أعمارا كاملة، ولن أستبدل مكانه أيا كان أبدا، رحت أشرح لها في هدوء، ولكنها اضطرتني إلى طردها من المنزل بالختام، ثم حملت نفسي وصغيرتي، وخرجنا نطارد الهموم بمفردنا في الخارج...

عدت إلى مزاولة عملي بالمدرسة صباحا، وبعد الدوام إلى التدريس بالمنزل، حتى استقر أمر بيتنا، وأصبح كقصر يملأه السكينة والراحة، ومضت بنا الأيام، ونسيت أمر أهل زوجي مطلقا، حتى كانت أحد الليالي المطيرة في وقت متأخر جدا، فإذا بإحداهن تطرق الباب، ترددت كثيرا قبل أن أجيبها لكنني كنت أشعر بداخلي أن هذا الصوت يبدو مألوفا، وأين عساي سمعته

قبلا، نعم إنه من ظننتم بالضبط، لقد كانت والدة زوجي، كانت تبكي وترتجف فزعا، وتتمتم بكلمات غير مفهومة، أدخلتها على الفور، وأعطيتها ملابس، وبينما كنت أعد لها الشاي، استيقظت صغيرتي إثر الجلبة والأصوات، وعندما هممت بتقديمها، قاطعتني بتعريف نفسها أنها "عابرة سبيل"، أذهلتني إجابتها كثيرا، ولكن ليس كذهولي من انكسارها وحالة الوهن التي كانت تعاني، شعرت مني بتساؤلي عن سبب الزيارة غريبة الموعد، فقالت: اليوم هو يوم الحقيقة، ويوم الحق المبين، لقد ظلمتك مرتين، يوم عيرتك باليتم، ويوم كنت سببا في يتم ابنتك هي الأخرى..

عندها لم أتمالك نفسي، وبكيت كطفلة فقدت أمها التي يأست في عودتها، هرعت إلى غرفتي، وجلبت الأوراق الخاصة بتصريح دفن زوجي، لأتفاجأ لأول مرة، أنه توفي بغيبوبة سكر، كلمات من الوالدة الحانقة، أو بالأحرى طعنات كانت كفيلة بأن تكون سببا في نهاية حياة ولدها، وهل يبلغ بأحدهم حبه لنفسه لأن يقتل بعض روحه!

أعدت كل شيء لمكانه، وأخذتني نوبة بكاء، وعادت بي إلى تلك اللحظات التي سعيت كثيرا إلى تخطيها، وأجبتها بعد طول انتظار: أما حقي فحسبي فيه الله، وأما يتم ابنتي فلك سؤالها عندما يحن وقته المناسب، تركت لها المكان، وسكنت روحي إلى جوار صغيرتي...

وكانت المرة الأخيرة التي أراها فيها بين عالم الأحياء، لم نلتقي بعدها مطلقا...

أما عن السلفة التي اتهمتني زورا، فقد آل أمرها إلى مشفى الأمراض العقلية، لقد فقدت كلا ولديها في حادث سير، ولم تعد تهتدي إلى سبيل يجمعها بزوجها الذي تزوجها رغما عنه، كما قد اتضح، فريثما وسنحت له الفرصة فر هاربا إلى غير رجعة، لكنني أسامحها فلم تكن سوى ضحية في لعبة حب النفس والسلطة والنفوذ التي حاكتها حماتي، وسطرتها بمداد حقدها وغيظها...

وبعد سنوات من السير في دروب الاختبار، من الله علي من فضله، وتخرجت ابنتي لتصبح طبيبة ماهرة، واليوم يركض من حولي أطفالها

الصغار كفراشات حول زهور البستان، إنهم كقطرات الندى التي تشفي كل ندوب قلبي السالفة، وتلك الضحكات التي ثبت بعالمي ترياق السعادة...

وكل ما كان وأسوأ منه لا يعادل تلك اللحظات أبدا، ولا يعادله كل هموم الدنيا، فاللهم لك الحمد على الجبر، وعلى منحك الصبر، والتوفيق في الاختبار...

فمهما اشتد بك الأمر، اصبر وصابر وجاهد، لأنه "من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين"

★★★

١٠-خِتَامُهُ مِسْك

تبدأ فصول هذه الحكاية منذ ثمانية أعوام مضت، دائما أردد بداخلي أنه لم يعد هناك ما يدعو إلى تذكرها، ولتكن كبطلها الأول ذرة غبار ضئيلة في مهب ريح الذكريات التي لا تبقي ولا تذر!

الذكريات التي تُعَنِتُنا، وتحرقنا، أو تهبنا نسيم البقاء، ورحيق المقاومة. لكل منا كتلة أشواك يحملها في صدره دائما يطلق عليها الذكريات، وتختلف استجابته لدى استحضارها، وحتى لا أطيل عليكم، تبدأ قصتي في سنتي الجامعية الثالثة، طالبة مجتهدة تحمل قدرا عاليا من

الصبر والإرادة، وكان لدي من العزيمة ما يطوق القمم الرواسي، وكعادتي لم أكن أترك صغيرة ولا كبيرة في مجال دراستي إلا وسألت عنها حتى سبرت أغوارها تماما.

وفي أحد الأيام أحالني أستاذ المادة على معيد له صيته في القسم، إنه دكتور زياد، لم أتردد في الذهاب ومتابعة شغف التعلم بداخلي، أثار فضولي انتباهه، وأبدى إعجابه بما سألته عليه، شكرته على وقته ثم انصرفت في طريقي، وكأن شيئا لم يكن.. مرت أيام قلائل، وتعرض أستاذ المادة لوعكة صحية، منعته الحضور لمدة أسبوعين تقريبا، توارد فيهما زياد على قاعة المحاضرات الخاصة بنا، وقام بتأدية دوره على الوجه الأكمل، وبالطبع كما توقعتم، زادت

أسئلتي التي استجلبت اهتمامه، ثم انقطعت بيننا الصلات تماما حتى حلت اختبارات نهاية العام، كنت أراه بصفة شبه يومية، لكن لم تجمعنا محادثات أبدا.

وبعد ظهور النتيجة، صدمت بقرار والدي، الذي قرر تزويجي، مدعيا بأن هذا الشخص لا يمكن رفضه مطلقا، وأنني حينما أراه سأوافق على الفور، أذهلتني ثقة والدي في موافقتي، وجعلتها تحديا خبأته بين نفسي، لكن وبكل أسف انهزمت في ذلك التحدي، فقد كان المتقدم لخطبتي هو، نعم إنه زياد أو كما كان يلقب دكتور زياد. كان هذا اللقب هو جل ما يملكه من حطام الدنيا، مجرد كلمة صغيرة لا يدري عن كنهها شيئا، أما عن أي ميزة أخرى فلا توجد

هناك، كقصر مزين منقوش خارجا، خاوٍ على عروشه من الداخل! وماذا يعني كونك معلما، وحاملا لرسالة، أتذكر كل معلم ومعلمة تعاقبوا يوما على تدريسي، فلا أتذكر من المعلومات إلا القليل النادر، ولكن ما يحيا بداخلي حقا هو تلك المبادئ والقيم التي أرسوها على مدار سنوات عمري التي مضت.

على أية حال عقدنا خطبتنا، وتوطدت علاقتنا سريعا، أمضينا أغلب أوقاتنا في المناقشات العلمية، وفي كل مرة يزداد إعجابي برصيده العلمي، وقدرته على التحليل والمناقشة، وهنا بدأت ارسم صورا بداخلي لحياتي المستقبلية بألوانها الزاهية، وأوقتها السعيدة المؤنسة، حتى أرسل إلي زياد في أحد الأيام رسالة مفادها"

أنت تعوقين نجاحي، ليذهب كل منا في وجهته، والشبكة أجرة لك على الأوقات السعيدة، والذكريات الماضية"، توقف قلبي عن النبض للحظات، غُصت أنفاسي بصدري، لم تعد رئتي تعي الفارق بين شهيق وزفير، تجمد الوقت، وتدفق البرد بأطرافي، ثم تذكرت مزاح زياد الثقيل، وكيف أنه كاد يرديني رعبا غير مرة؛ فاطمئن قلبي، والتقت بعضا من أنفاسي الهاربة، ثم جلست وقررت أن أرد له الصاع صاعين، فأرسلت له رسالة تقول" لك هذا"، ثم أمضيت يومي بين المذاكرة وإعداد بحث علي تسليمه بنهاية الأسبوع ولم أبدِ اهتماما لما حدث...

في الصباح التالي، لم ألتقِ بزياد مطلقا، ولشدة انشغالي لم أسعَ لذلك حتى، مضى يومي

الدراسي برتابته المعهودة، وعدت إلى المنزل لا تحملني قدماي تعبا، فخلدت إلى النوم على الفور، ولم أستطع الذهاب إلى الجامعة في الصباح التالي لفرط إجهادي.

ملكتني الدهشة لعدم اتصاله، وسؤاله على حالي، انتابني خوف شديد أن يكون أخذ أمر مزحتي على محمل الجد، بدأ الرعب يتملكني شيئا فشيئا حتى هاتفته بالنهاية...

خمسون اتصالا، نعم وبلا إجابة، فسلكت درب الرسائل النصية التي لم تلقَ إجابة هي الأخرى، حتى هتف في أذناي من تردد" الهاتف المطلوب مغلق أو غير متاح، يمكنك إرسال رسالة صوتية"

نعم، مغلق أو غير متاح، لكنه ليس هاتفا وإنما قلبه المغلق وغير المتاح الآن، ربما كان يُغَير في بعض مقاديره بحسب ما يزن قاطنيه بالدرهم والدينار، فلطالما كال زياد أحبائه كالمطففين!

وكالعادة تعللت له بألف عذر، ومع أول إشراقة للشمس، انتفضت مهرولة نحو الجامعة، كان بالقرب من المدخل مباشرة، يجلس بصحبة فتاة لا أعرفها، توحي طلتها ولباسها بالثراء الفاحش، أسرعت نحوهما، فانتبه زياد لقدومي، أراد أن يقطع علي الاقتراب أكثر فقاسمني المسافة حتى كنا على بعد متر تقريبا من مجلسهما السالف، قابلته بابتسامة مردفة: كدت تقتلني بمزاحك الثقيل، لو مت بنوبة قلبية، فاعلم

بأنك السبب، فإذا بوجهه منقبض، عابس، نظر بحدة نحوي مباشرة وأردف: لا أدري ما الذي لم تفهمي في كلامي، لقد كان أوضح من شمس الأفق، لكنني على نفس حالتي من المزاح، يكفي الآن، أعلن هزيمتي، لك شرف الفوز، ولي شرف المحاولة، فزاد من حدته ورفع نبرة صوته قائلا: نعم لك شرف المحاولة، هل تصدقين نفسك حقا، أنا معيد، وقريبا سأصبح أستاذا جامعيا، ولا أريد أن تكون زوجتي ابنة سائق التاكسي، هنا فقط أدركت أن الأمر ليس مزحة، ليس هناك من يَقْدر على تحمل مزحة سخيفة كهذه. ابنة سائق التاكسي كانت بمثابة صعفة دامية لقلبي، الذي يسكنه أبي، ويطوف بين جنباته، شعرت بالأرض تدور من تحتي،

تختنق أنفاسي، ويتباطأ النبض بلقبي، حاولت ابتلاع اهانتي ومغادرة المكان، فتجمدت أجزائي، واستسلمت عيناي إلى سبات، ولم أسمع شيئا بعدها إلا صوت بكاء أمي واسترجاعها بالمشفى.

هل مت الآن؟!! وهذا هو نعي والداي، ونحيب أختي، وتأبين رفاقي؟!، أم هذا كابوس، سأستيقظ منه بعد قليل لتأتي أمي على إثر صراخي من غرفتها؟!، ما الذي يجري؟ وما هذه الأصوات المتداخلة؟ طنين، وصوت يشبه إنذار ما، صوت بكاء عالي، ونحيب مبكي.

شعرت برغبة في البكاء، فلم أستطع، وبرأي لم يخلق شعور بعد يضاهي العجز عن البكاء في أحوج ما تكون إليه، كأنما النيران تغلي بداخلك،

تذبح روحك بنصل مسموم، تتجمد أجزائك
كأنما شلت. الدمع المتحير هو أقسى ما قد يبتلى
به المرء ويعذب، يخنقه شيئا فشيئا حتى يتركه
كالأحياء الموتى، وإن شئت لك القول، الموتى
الأحياء، فمن مات قلبه هو من يستحق اللقب
عن جدارة!

أخذتني موجة الضوضاء تلك لفترة لا أعلمها،
ثم تواردت قصاصة الإهانة التي وجهت إلي،
فانتفضت يداي، وشعرت برغبة شديدة في
السعال، ارتفع ظهري صعودا وهبوطا عن
السرير، نظرت بذعر لما يجري، وللمكان الذي
يضمني، بعد لحظات وجيزة من حالة
الاضطراب تلك، دخل طبيب إلى غرفتي حاول
تهدئتي، حاولت جاهدة تجميع كلمات أتحدث بها

فلم أجد، لكن الحظ حالفني بشيء آخر، وأخيرا، فتحت السدود المحكمة بعيني لتأذن بانهمار دمعي الذي يحرقني من الداخل، بكيت لفترة طويلة، في صمت تام، أجلس كتمثال على سريري وتنساب العبرات على وجنتاي، حتى سمعت من يهتف باسمي: أستاذة منة، يمكنك الانتقال لغرفة عادية، لم يعد لك حاجة بالعناية المركزة، ثم ختم بقوله: سأتابعك باستمرار. لم أجب بكلمة واحدة، أخذت أطالع المكان في صمت، العناية المركزة؟ الكلمة التي كان يقشعر لها بدني إثر سماعها، ها أنا اليوم أحد نزلائها، لم يخطر ببالي ورودها يوما، لكن ليس كل ما نعتقده يتحقق، وما لم نفكر به لا يحدث!

أمضيت نحو أسبوعين في المشفى، بعدها أشار دكتور أيمن بضرورة خضوعي للعلاج النفسي، أو على الأقل استشارة الطبيب، فالمرض النفسي هو بمثابة القاتل الصامت، بل إنه أبشع بالتأكيد!

حين تموت بمفردك، دون أن يشعر بك أحد، حين تقتلك نفسك، ويهلكك تفكيرك، فاعلم أنك في مرحلة خطرة من المرض النفسي، وبالفعل استجبت لنصيحة دكتور أيمن، وذهبت لطبيب نفسي على الفور، فأنا أعرف من يكون بنفسي، وبما يشفيها، في الواقع، كلنا نعرف، لكننا نتجاهل، أو نتناسى..

مرت الأيام وعدت إلى ذات النقطة التي أحدثت كل هذه التحولات بحياتي وعالمي، رأيت زياد

مصادفة برفقة مخطوبته الجديدة، والتي أسعفني الوقت للتعرف عليها هذه المرة، رسمتُ ابتسامة عريضة، وتوجهت نحوهما، لأعرف عن نفسي، أنا منة زميلة في الفرقة الرابعة، وبعد قليل أجابتني الأخرى أهلا أنا غادة ابنة دكتور هشام وخطيبة دكتور زياد، التفتُ نحو الدكتور المنشود وسددتُ تهنئة صادقة، نكس وجهه أرضا وراح يتصبب وجهه العرق، كانت تلك أول ضربة أسددها له، وبمتابعة نصح أختي منار، التي كانت منارا وبحق، لطالما أضاءت أحلك الظلم في حياتي، وأرشدتني إلى أحسن السبل، ولا أعتقد أن هناك أحسانا قدمه لي والدي أكثر من منار، ثم إنهم أطلقوا عليها هذا

الاسم فيما بعد، لتكون منارا لحياتي، ورفيقة لخطاي..

لا زلت أتذكر كلماتها حتى الآن، "اصنعي من ضعفك قوة، ومن هزيمتك فوز، ومن خسارتك ربح، اجعليه يتمنى أن يعاوده الزمان بثانية واحدة من زمان وصالك"..

وبالفعل وجهت كل طاقتي الغاضبة من زياد نحو المذاكرة والاجتهاد، وأخيرا مَن الله علي بالمعافاة والرضا، وكلل صبري، بنجاح ساحق، حللت في المرتبة الأولى على فرقتي، ونزل تكليف بضمي إلى هيئة التدريس، جمعتني مصادفات عديدة بزياد بحكم الزمالة، لم أكن له غير الشفقة على حاله، وما آلت أموره إليه، فقد توفي الدكتور فلان والد زوجته التي كانت

تسقيه المر علقما بعدما تبدد أمله بمساعدة والد زوجته في رسالته، أمهلوه حتى نهاية العام، وإلا سيلحق بقسم الإدارة بالكلية، أما أنا ففي ختام العام ناقشت رسالتي، ونلت امتيازا مع مرتبة الشرف الأولى. وبعدها بأيام وجيزة، أخبرني والدي بأن هناك من يرغب في الزواج بي، فأجبته بأنني قد نزعت هذه الفكرة مطلقا من تفكيري، ولم أعد اهتم بالأمر، ألح علي لأدخل لدقائق يسيرة وإن حدث وانزعجت لأي سبب أخرج مباشرة ولا مجال للنقاش بعدها.

أغراني عرض والدي وسخائه، فقررت الدخول، لم أنظر بوجه خاطبي، جلست في هدوء لأسمع من يقول" الحمد لله على المعافاة، أسعدني أنك وجدت ذاتك أخيرا"، بحثت لوهلة

في خزانة ذكرياتي، هذا الصوت أعرفه من قبل، رفعت بصري قليلا، فإذا به ذلك الطبيب الشاب في المشفى، إنه دكتور أيمن، جلست قليلا ولم أتكلم مطلقا، لكنني لم أخرج أيضا، قررت أن أمنح نفسي وقلبي فرصة، واستجيب لطوق النجاة الذي ألقي بقدري، وبالفعل تزوجت من دكتور أيمن الذي لم أتخيل قدر السعادة التي أحياها برفقته مطلقا، وكم الدعم الذي يقدمه لي.

ناقشت رسالة الدكتوراه وحصلت على ذات التقدير، وشكرت ببدايتها كل من كان سبب في استعادة روحي، وهداية قلبي، ولم أعد التفت لزياد الموظف الإداري، الذي كان نقطة لتحولي من النقيض إلى النقيض.

ليس في كل فراق نهاية، ربما كانت البدايات تكمن في النهايات ونحن لا ندري!، مهما تعثرت قم وانهض، قاوم، وقاتل من جديد، ولا تقنع من النهايات سوى بما كان" ختامه مسك".

★★★

تمت بحمد الله

٢٠٢٠/١٠/٣١